

الحائز  
جائزة نوبل  
للآداب

رِوَايَة  
غَاو شينغجيان

# جبل الروح

ترجمة:  
بَسَّام حَجَّار  
و مَارِي طُوق



علي مولا

## نبذة عن المؤلف:



لمحة عن المؤلف غاو شينغجيان:  
وُلد في الصين عام ١٩٤٠ في إقليم  
جاونكشي. نال إجازة في اللغة الفرنسية  
عام ١٩٦٢. تَرجَمَ إلى اللغة الصينية  
مؤلفات يونسكو، وبريفر، وميشو.  
إبان الثورة الثقافية أمضى ست سنوات  
في معسكر إعادة تأهيل، واضطُرَّ آنذاك  
إلى إحراق حقيبة أخفى فيها مخطوطات  
أدبية عدة. أقام شينغجيان في فرنسا  
لاجئًا سياسيًا منذ العام ١٩٨٨. في العام  
٢٠٠٠، نال جائزة نوبل، وهو أول  
كاتب صيني يفوز بهذه الجائزة عن  
أعماله الأدبية المتسمة بطابع عالمي ووعي  
جاد بالتجديد اللغوي.

وشينغجيان فنان تشكيلي ومخرج  
سينمائي أيضًا. له أعمال فنية تصويرية  
وأفلام، منها: بعد الطوفان (٢٠٠٨).  
وله مسرحيات شهيرة مثل: الضفة  
الأخرى (١٩٨٦) والمسرنم (١٩٩٥)،  
وقصص قصيرة بعنوان: قصة صيد  
الجدّي.

غاو شينغجيان

# جبل الروح

ترجمة: بسام حجار  
ماري طوق

جبل الروح  
تأليف / غاو شينغجيان

ISBN: 978-9953-89-132-3

الطبعة الأولى : ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

جميع الحقوق محفوظة لدى كلمة (كلمة)

ص.ب. ٢٣٨٠ أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف : ٩٧١ ٢ ٦٣١ ٤٤٦٨ +

فاكس : ٩٧١ ٢ ٦٣١ ٤٤٦٢ + [www.kalima.ae](http://www.kalima.ae)

دار الآداب للنشر والتوزيع بيروت - لبنان، ساقية الجنزير - بناية بيهم ص.ب. ١١ - ٤١٢٣

هاتف : ٩٦١ ١ ٨٦١٦٣٣ + ٩٦١ ١ ٧٩٥١٣٥ + فاكس ٩٦١ ١ ٨٦١٦٣٣ +

[e-mail:d\\_aladab@cyberia.net.lb](mailto:e-mail:d_aladab@cyberia.net.lb)

هذه هي الترجمة العربية لكتاب : La Montagne de l'âme

إن هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبّر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبّر بالضرورة عن آراء الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ (كلمة)

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

## مقدمة

لقد أتاح مسعى خجول لإضفاء بعض الليبرالية على السياسة الرسمية الصينية، لبعض الكتاب الصينيين، في أواخر السبعينيات، — أتاح لهم أن ينصرفوا مجددًا إلى الكتابة، لا لخدمة الحزب، هذه المرة، وإنّما، ببساطة، للتعبير عن أنفسهم كبشر، وعليه أطلقت عشرات المجالات الأدبية ونُشرَ فيها ما لا يُحصى من النصوص من أنواع وأحجام مختلفة. تحقيقات صحافية وقصص قصيرة وقصائد وروايات ومسرحيات وسيناريوات أفلام، استُخدمت جميعها لإطلاق صرخة واحدة ضدّ محاولة التدمير الكامل للإنسان والثقافة، والتي كانت قد شهدتها الصين إبان «ثورتها» الثقافية المزعومة. طبعًا، حاول عدد من هؤلاء الكتاب الرجوع إلى أسباب هذه الكارثة فجرت عليهم استنتاجاتهم سهام النقد الرسمي للحزب (الشيوعي الصيني) الذي كان مقيمًا على مراقبة عن كثبٍ لكلّ ما يُنتج في هذا المجال. من بين أسماء كثيرة تميّزت أسماء بعينها حظيت ببعض الشهرة، ومنها: آ تشنغ، مو يان، كان شو، لو ونفو، ليو بينيام، تشانغ شينشِن، وانغ منغ، هان شاوغونغ، وسواهم،

وسطع نجمهم في سماء الصين، كما ذاع صيتهم لدى ذواقَة الأدب الشرقي خارج الصين.

كان لا بدّ لمقاربة المضمون أن تؤدّي إلى مقارنةٍ للشكل. فالصين لبثت زمنًا طويلًا جدًّا معزولة عن باقي العالم، حتى في مجال الإبداع الأدبي، فاكتشاف أعمال غارسيا ماركيز وسارتر وجويس وكافكا وكونديرا وغيرهم، في السبعينيات، أحدث صدمة قويّة لدى الكتاب الصينيين. وقد لعب المترجمون والباحثون دورًا طليعيًا على هذا الصعيد، ولكن إسهام هؤلاء في النقاش الأدبي كان أكبر، من دون شكّ، عندما جمعوا بين كونهم مترجمين وكتّابًا. تلك كانت حال غاو شينغجيان، المولود عام ١٩٤٠ في جيانغشي، والمُجاز في اللغة الفرنسيّة من «معهد اللغات الأجنبيّة في بكين»، وعاشق المسرح منذ صباه الباكر. منذ نهاية «الثورة الثقافيّة» درج على التعبير صراحة عن مفاهيمه المُجدّدة، سواء في ميادين المسرح أو الأدب. ونظرًا لامتلاكه القدرة على قراءة بريفيير وبيكيت ويونيسكو في لغتهم، وهم الذين ترجم أعمالهم للقارئ الصيني، استطاع، عامدًا، أن يعرف معاصريه بكتاب الحداثّة الغربيين وبأساليب إبداعهم في كتابه المُعنّون: «مبحث أوّل في فنّ الرواية الحديثّة». وكان للنقاش الحادّ حول «الحداثّة» الذي أعقب صدور هذا الكتاب سنة ١٩٨١، أهميّة بالغة. غالبًا ما تُعتبر سنة ١٩٨٥ سنة القمّة في مجال الإبداع الفنّي الصيني. وهذا صحيح، غير أنّها ما كانت لتغدو حاسمةً على هذا النحوِ إلّا بسبب السجال حول «الحداثّة» الذي سبقها.

غاو شينغجيان، المدافع الشغوف عن «الحداثة» في الأدب، دعا إلى تطوير أشكال جديدة: من قبيل تيار الوعي، والتخلي عن حبكة بعينها، واستخدام لغة وأسلوب خاليين من تأثير السياسة... وعقب اضطرابه إبان الثورة الثقافية إلى إتلاف مخطوطاته ومسرحياته ورواياته التي كان قد ألفها من قبل، نشر بدءاً من العام ١٩٨٢ قصصاً قصيرة ونصوصاً مسرحية نذكر من بينها: صفارة إنذار، محطة الحافلات، والرجل المتوحش... التي حاول أن يُفرد فيها مكانة محورية للغة ولـ «المسرح» المفضية إلى المُتخيّل. سرعان ما حظرت عروض مسرحياته على خشبة «مسرح الفن» في بكين؛ فأثر مغادرة العاصمة مبتدئاً رحلة طويلة إلى مقاطعات الجنوب والجنوب الغربي، والتي أتاحت له، في وقت معاً، أن يقتفي آثار الصين ما قبل كونفوشيوس، وأن يستكشف المناظر على طبيعتها. وعلى هذا النحو أغنى تحرّيه التصويري وعمله الأدبي، كما أغنى تحرّياته الإتنولوجية والتاريخية. الحقيقة أنّ غاو شينغجيان هو، بلا ريب، أحد أكثر المؤلفين انتقائية وغازرة في زماننا. مترجم ومُنظّر ومؤلف مسرحي وروائي وشاعر، وهو رسّام أيضاً. فهو المنتسب بميراث التصوير الصيني بالحبر، يُجيد استخدام الريشة للتعبير عن أحاسيسه الحميمة على هدي حُببيات الورقة، وثبات الإيماءة وانسياب الماء.

إثر عدد من الرحلات قام بها إلى الخارج، استقرّ غاو شينغجيان في فرنسا منذ العام ١٩٨٨، وتمكّن من عرض مسرحياته بنجاح في كل من النمسا وإيطاليا، في ظلّ هامش أوسع من الحرية لم يكن متوفراً له في الصين القارية، وإن جوبه ببعض الصعوبات المالية نفسها التي يعاني منها جميع المؤلفين المسرحيين في الغرب. وقد أدّت أحداث العام ١٩٨٩

إلى القطيعة النهائية بينه وبين الحزب ونظام الحكم القائم في الصين. وفي السنة نفسها كان فراغه من تأليف روايته **جبل الروح** التي كان بدأ بكتابتها أثناء رحلته إلى مناطق الصين الداخلية، وصرّح أنه، بفضل هذه الرواية، قد يكون «صفى حساباته مع نوستالجيا مسقط الرأس». المنفى في نظره لا يشكّل معاناة؛ لا بل على العكس، إنه يُتيح له أن يكون على صلة مباشرة مع هذا العالم الثقافي الغربي الذي كان هو قد عرّف الصين إلى تياراته الكبرى. ونظراً لرفضه مبدأ الانتظار ريثما تشهد بلاده أياماً أفضل، دعا غاو إلى هروب فاعل، وتابع عمله الإبداعي على أحسن الوجوه. وبعد أن ترجمت أعماله ونالت استحساناً في السويد، تجرّأ على مغامرة الكتابة مباشرة بالفرنسية، فكانت باكورة هذه المغامرة مسرحيته **على قارعة الحياة** التي أخرج عرضها ضمن عروض «مهرجان أفينيون»، المسرحي آلان تيمار، وأقنعت عدداً من المهتمين في هذا المجال.

إن رواية **جبل الروح** تجسّد عملاً فريداً في المشهد الأدبي المعاصر. فهي، في وقت معاً، رحلة صميمية، وحوار بين شخصيات يُعرّف عنها بـ «أنا» و«أنت» و«هو»، أو «هي»، (ولا أثر للـ «نحن» التي تُشير إلى الجمهور أو الجماهير، التي تَوْقِظ، بلا ريب، كثيراً من الذكريات غير المستحبة...)، واستحضار لمناظر الصين وغاباتها العذراء إلى اليوم، وتشخيص لعذابات الغرام، أو مجرد وصف لهنيئة من المتعة مصدرها الصداقة أو تأمل نهر، وحكاية شطّارية كلاسيكية رائعة، واستدعاءً للواقع العدمي أو الكافكاوي المعاصر، وتبصّر في الفن الروائي، ومع ذلك، فإنّ هذه الرواية ما كانت لترقى إلى مستوى مماثل من الإبداع من غير اللغة التي تضمّ أطراف مسكّتها: لغة عصرية، ذات

جرس، خالية من التكلف والغموض، ولا «شوب» فيها على الإطلاق إذا ما تليت تلاوة. إن تجربة المسرح تلعب دوراً مهماً في كتابة غاو شينغجيان: لقد اعتاد خلق المسافة بين الراوي والقارئ عبر تكراره إلى ما لانهاية عبارة «نقول...»، والتي نعثر عليها أيضاً في نصوصه المسرحية. إذا كان الـ «أنا» هو آخر، كما قيل ويقال، فإن الـ «أنا» لدى غاو شينغجيان يستحيل «أنت»، يستحيل صوتاً صميمياً حياً، ومقيماً على مسافة، ولذا يكون شاملاً. عندما يسعى الـ «أنا» وراء استيهاماته لكي تغدو حقيقة واقعة، ينبو «أنت» عن الراوي.

أ يكون جبل الروح هذا، الوارد ذكره في الأساطير الصينية، وهو اسم مكان غير مؤكد وجوده على الخريطة الصينية، هو رحلة سعي وراء الجمال والمعرفة المطلقة، واعترافات لها صلة بالسيرة الذاتية، أم يكون هو الرواية في حد ذاتها، رواية مستحيلة لأنها خارج المعايير الروائية السائدة، سواء في الشرق أو في الغرب؟ ولعلّ العبارة الختامية في الرواية التي تقول: «في الحقيقة، إنني لا أفهم شيئاً، لا أفهم شيئاً على الإطلاق. هكذا الأمر، لا أكثر»، تظهر على نحو قاطع أن الإجابة بعيدة المنال.

### نويل دوتره

لقد عمد المؤلف إلى مراجعة الترجمة الفرنسية لـ «جبل الروح» بنفسه، ما أتاح لعمل المترجمين (نويل وليليان دوتره) على اللغة أن يكون مثمرًا جداً. يُذكر أن الرواية صدرت في ترجمة سويدية على أن تتبعها، قريباً، ترجمتان إلى الإنكليزية والألمانية.



## «الأثر الزائل هو الطريق»

أذكر، قبل وفاة بسّام حجار بثلاثة أشهر، اتّصلت به لأنّ عبارة استعصت عليّ في كتاب كنت أعمل على ترجمته، كان صوته آخر ما تراءى لي منه، كان حزيناً وحارقاً في آن. لم يمهل الموت، ولم يستطع أن ينجز من هذا الكتاب إلاّ مئة وعشرين صفحة. لا أعرف، أنتهزها فرصة كي أرثيه وأرثي ما فقدّه الأدب وما فقدته الترجمة والذائقة الثقافية بغيابه. أقول إنّ من بين الذين نمّوا حساسيّة جيل بكامله. كنت أودّ لو تعاونت معه في حياته (كيف لم أفكر في ذلك من قبل!)، لكن ربّما كان هذا التعاون في مماته اتّصال من نوع آخر، لأنّ طيفه كان حاضراً دوماً.

وقد ذكرني جبل الروح بمقطع من كتابه كتاب الرمل:

«أسأل الرجل الذي صادفته في حلم الرجل الآخر: إن سلكْتُ إسفلت هذه الطريق، هل أصل؟

يقول: إلى أين؟

أقول: لا أدري، ولكن هل أصل؟

يقول: لم أدر من قبل أنّ طريقاً قد تفضي إلى هناك.

ويقول: ربّما قلبك هو الطريق».

## الفصل الأول

رَكِبَتْ حافلةً للمسافات البعيدة. ومنذ الصباح سارَ الباص القديم المتقاعدُ من خدمته في المدن، انتهت عشرة ساعة من دون توقّف، مُرتجًا على الطرقات الجبلية غير المصونة، المليئة بالحدّبات والحفر، قبل أن يصل إلى هذه البلدة الصغيرة في الجنوب.

حقيبة على الظهر وحافظة صغيرة باليد، تُنقلُ بصرك في أرجاء الموقف حيث تجمّعت أغلفة الثلجات وفضلات قصب السكر الممضوغ. رجالٌ محملّون بحقائب من كلّ الأحجام، ونساء حاضنات رُضّعهن بين الأذرع، يترجّلون من الباص، أو يجتازون الموقف فيما نَفَرٌ من الشبان، من غير حقائب أو قفف، يتناولون من كيس صغير بزور دوار الشمس التي يرشقونها واحدة تلو الأخرى إلى أفواههم، ثم يلفظون قشورها على الفور. يأكلون برشاقةٍ مُطلقين ما يشبه الصغير، بلباقةٍ وطلاقة يختصّ بهما أسلوب عيشهم المحلي. هنا مسقط رأسهم فلا ما يدعوهم إلى عدم العيش بحرية تامّة، جذورهم انغرسَت في هذا التراب من جيل إلى جيل. ولا جدوى من مجيئك أنتَ من بعيدٍ بحثًا عن جذورٍ لك فيه بدلًا منهم. ولكن، لمن رحلوا عن هذا المكان منذ زمن بعيد، لم

تكن محطة النقل البري قد وُجدت بعد، ولا هذه الحافلات. كان عليهم، إذا أرادوا الانتقال عبر النهر، أن يركبوا زورقاً مغطى ببساط من القصب، وإذا أرادوا أن ينتقلوا براً كان عليهم أن يستأجروا نقالة بعجلتين. أما الفقير المعدم فلم يكن أمامه إلا ركوب نعلته. اليوم يتنافس جميع من لبثوا على قيد الحياة على العودة إلى الديار، حتى من الضفة المقابلة للمحيط الهادئ، مستقلين السيارات الصغيرة الخاصة أو سيارات فارهة مزودة بمكيّات. بعضهم جمّع ثروة، والبعض أحرز شهرة، وآخرون لبثوا نكرات، ولكن جميعهم يعودون بسبب تقدّمهم في السن. فمن ذا الذي ينجو منا في آخر العمر من هذا الحنين؟ أولئك الذين لم تراودهم يوماً أحلام الرحيل عن المكان، يتسكعون بتلقائية، متخطفين، متضاحكين، متكلمين بصوت مسموع من دون حرج. نبراتهم عذبة ألوفة ومؤثرة إن شئنا المغالاة في وصفها. عندما يلتقي اثنان بينهما معرفة سابقة لا يتبادلان، كما هي الحال في المدن، عبارات المجاملة الفارغة مطاطيين الرأس أو مصافحين. بل تراهما يتتاديان باسميهما أحياناً، وأحياناً أخرى يربّت أحدهما كتف الآخر بحرارة، أو يؤثران تبادل العناق، فالعناق ليس حكرًا على النساء هنا، وإنما عادة الرجال. بقرب حوض الإسمنت المخصّص لغسل الباصات تقف امرأتان شابتان. تثرثران من دون توقّف، وتمسك إحداها بيد الأخرى. يبدو حديث النساء في هذا البلد على قدرٍ من الحذقة فلا تقدرُ إلا أن تلقى نظرة. من الخلف تبدو عمّرتها المشغولة من نسيج أزرق مزركش متوارث من جيل إلى جيل، والطريقة التي ثبّتتا بها على الرأس، على قدرٍ كبير من فرادة الذوق. من غير قصد، تقترب منهما. العمرة معقودة تحت الدقن،

على هيئة مثلث، مبرزةً حُسْنَ وجهين لطيفي القسمات متناسقين مع رشاقة القامتين. تمرّ بلصقهما. يداهما اللتان ما زالتا متشابكتين وتشوبهما الحمرة ذاتها، خشتان بمقدارٍ، نانتنا البراجم. عروسان من دون شكّ قَدِمتا لزيارة صَحْبٍ أو أقارب. مع أنّ صفة «العروس» هنا لا تعني إلّا امرأة ابناها. ولو استخدمنا الصفة على غرار استخدامها من قبل أفظاظ الشمال للتدليل على أية شابة تزوّجت حديثاً، لَنَلْنَا من الشتائم ما يُغْنِينَا. فما إن تتزوَّج الفتاة هنا حتى تطلق على زوجها صفة «العجوز»، سواء كان القصد أن تقول «زوجي» أو «زوجك». الناس هنا لهم مفرداتهم الخاصة وإن كانوا جميعاً صينيّين متحدّرين من سلالة الأباطرة المؤسّسين، مُنتمين إلى العرق ذاته وورثة الثقافة عيناها.

أنتَ نفسك لا تدري حقاً لماذا جئتَ إلى هنا. كانت محض مصادفة أنك سمعت أحدهم في القطار يتكلّم على مكان يُسمّى لينغشان، جبل الروح. كان الرجل جالساً قبالتك، وطاسُ شايكِ لصقَ طاسِ شايه، واهتزّازُ عربة القطار يجعلهما يطقطقان. وكان ربّما من حسن الحظّ أن يواصل الطقطقة أو أن يكفّا في غضون هنيهة، لكنّ المصادفة شاءت أن تسارع أنتَ، وأن يسارع هو في الوقت نفسه، فُبيل ارتطام الغطاءين، إلى الفصلِ بينهما، فكفّت الطقطقة للتوّ. ولكنّ الطقطقة عاودت بُعيدَ انصرافكما عنها. قَرَبْتما إصبعيكما منهما فتوقّف الصوت. ضحكتما كلٌّ بمفرده، واكتفيتما بإزاحة الغطاء قليلاً عن فمِ الطاس وباشرتما الحديث. سألته إلى أين وجهته.

— إلى لينغشان.



— أهنأك غابات عذراء؟

— طبعًا، ولكن ليس هذا فقط.

— أهنأك أناس متوحشون أيضًا؟ تقول مازحًا.

يضحك، ولكن من غير سخرية، الأمر الذي يُثير المزيد من فضولك. يجب أن تعرف مَنْ يكون هذا الرفيق الجالس قبالتك.

— هل تدرس علم البيئة؟ أم أنك عالم بيولوجيا؟ هل أنت باحث في علمي الإحاثة والإناسة أم عالم أثريات؟

— لا، بل قلّ إنّي مهتمّ خصوصًا بالأحياء، يقول نافيا بحركة من رأسه ما عدّته من مجالات اختصاص.

— هل تجري أبحاثًا على التقاليد الشعبيّة؟ عالم اجتماع؟ مختصّ بالفولكلور؟ عالم أعراق؟ أو الأحرى صحافي؟ رحالة مغامر؟

— أنا جميع هذه الأمور، ولكن بوصفي هاويًا.

ضحكتما سويًا.

— ولا يحول ذلك دون أن نمضي أوقاتًا ممتعة!

وضحكتما مجدّدًا من القلب. أشعل سيجارة وما لبث أن أدار عجلة هذره، ساردا كلّ أنواع الأعاجيب بشأن لينغشان. ثمّ، نزولاً عند رغبتك، مزّق علبة سجائر فارغة ورسم خارطة الطريق التي ينبغي لقاصد المكان أن يسلكها.

في الشمال ما زال الخريفُ في عزّه. أمّا هنا فحرّ الصيف ما زال على حاله. وقبل أن تغيب وراء الجبال تحفظ الشمسُ كلَّ طاقتها، وإذا ما لفّحت الجسم سال العرقُ من أعلى ظهر المرء إلى أسفلهِ. تغادر محطة الحافلات، وتُجبل أبصاركَ في الجوار. لا تجد أمامك سوى نُزلٍ صغير من طبقة واحدة، عتيق الطرز ذي واجهةٍ من الخشب. الألواح تحدث صريراً عندما تمشي على الأرضيّة، غير أنّ الأسوأ من هذا كلّهُ هو الوسائد والبُسط المائلة إلى سوادٍ دَبِق. لكي تغتسل عليك أن تنتظر حلول الليل فتخلع بنطالك وترشّ جسمك بالماء بواسطة كيلةٍ في الفناء الملاصق الضيق والرطب. مكان استراحة عابرة لمن يجوبون الأرياف من تجارٍ وحرفيين.

لن يهبط الليل قريباً، وهناك متّسع من الوقت لكي تبحث عن فندقٍ أكثر نظافة. تجوب الشوارع، حاملاً حقيبتك على ظهرك، ظناً منك أنّك لا بدّ أن تجد علامة ما، لافتة ما في هذه البلدة كُتِبَت عليها كلمة لينغشان أو أيّ شيء من هذا القبيل قد يثبت لك أنّك لم تضلّ الطريق، وأنّك لم تقطع المسافة كلّها سُدًى. تتلفّت في جميع الأنحاء مدقّقاً، ولا تعثر على أثر. ليس بين المسافرين الذين نزلوا مثلك من الحافلة مَنْ يوحي بأنّه سائح. طبعاً حتى أنت لا توحى للناظر بأنك سائح، ولكنّ مظهرك يختلف: حذاءً لتسلّق الجبال، خفيف ومتين، وحقيبة ظهر. طبعاً، المكان هنا ليس شبيهاً بتلك المواقع السياحيّة الذائعة التي يقصدها المتزوّجون حديثاً والمتقاعدون، والمجهزة بكلّ ما تقتضيه السياحة حيث الحافلات مركونة في كلّ مكان، ويمكن شراء الكُتيّبات السياحيّة عند ناصية كلّ شارع، وتُعرَض في جميع الدكاكين قبعات الكاسكت والقمصان

والتيشّرات والمناديل الموسومة باسم المكان، وحيث الفنادق التي ينزل فيها أجانبٌ يُنفقون العملات الأجنبية، ومراكز رعاية أو مراكز استجمام لا يمكن الدخول إليها إلاّ بموجب توصية مكتوبة، من غير أن تغفل طبعاً تلك النُزُل الصغيرة الخاصة التي تتنافس على جذب الزبائن، وجميع لافتاتها من دون استثناء تحمل هذا الاسم المقدّس. لم يكن الغرض من قدومك إلى مثل هذا المكان تزجية الوقت ضمن مجموعة على درب تلةٍ حيث يُراقبُ الناس بعضهم بعضاً، ويتدافعون ويتجمعون مُتلاصقين، ويرمون بلامبالاة أرضاً قشور البطيخ وقناني الأشرطة الغازية الفارغة وعلب الطعام المحفوظ، والأوراق المتسخة وأعقاب السجائر. ذات يوم سوف يغدو هذا المكان على مثل هذه الحال. كنت تحسب أنّك قدِمْتَ إليه قبل أن تُبنى فيه أجنحة السكن الفاخرة، وأكشاك الباعة، ومقاهي الرصيف وأبراج المساكن غير المرتفعة، تَوَاقاً إلى الوقوف أمام نقش على قاعدة تمثال لأحد المشاهير أو أمام عدسة أحد الصحفيين. وأنت نفسك لا تخفي سرورك بالأمر وإن ساورتك بعض الشكوك. في هذا الشارع لا أثر لما يجذب السيّاح، فهل خُدِعتَ؟ لم تتق إلاّ بخطة سير مرسومة على علبة سجائر مخفية في جيب سترتك، وبرفيق الدرب ذاك الذي التقيته صدفةً على متن القطار. ولا شيء يؤكد لك أنّه كان صادقاً في ما يقول. لم تقرأ شيئاً موثقاً من أدب الرحلات بشأن المكان، وحتى الدليل السياحي الضخم الصادر حديثاً لا يتضمّن مدخلاً بهذا الاسم. طبعاً نجد الكثير من المواقع التي تحمل أسماء لينغتاي أو لينغكيو أو لينغيان أو حتى لينغشان إذا ما تصفّحنا أطلس الصين بحسب مقاطعاتها. كما لا يخفى عليك أنّ ذكرَ موقع لينغشان واردٌ في العديد من المؤلفات

والنصوص القديمة، بدءًا بـ «كتاب البحار والجبال»، وهو مؤلف في العبادات وفي السحر القديم، وصولاً إلى المصنّف القديم في الجغرافيا «شروح على كتاب الأنهار». حتى إنّ الـ «بوذا» قد منح فيه الصّحة للموقر ماهاكاسيابا. لست غيبًا، يجب أن تُعملَ ذكاءك، ابحث أولاً عن هذه القرية التي تُدعى وويي المذكورة على علبة السجائر وعن السبيل المفضي إلى لينغشان، جبل الروح.

تعود أدرجك إلى محطة الحافلات وتدف إلى قاعة الانتظار، المكان الأكثر حيوية في هذه البلدة الجبلية الصغيرة، الذي تجده مقفراً تماماً في ساعة مثل هذه. شبابيك بيع التذاكر والأمانات مسدودة بلوح خشب. تطرقها، ولكن عبثاً. لم يبق أمامك إلا أن ترفع رأسك لكي تُحصي أسماء المحطات، وكل اسم منها أجمل من سابقه، المدوّنة تبعاً عند أعلى الشباك: «قرية آل تشانغ»، «دكان الرمل»، «مصنع الإسمنت»، «الفرن العتيق»، «حصان الذهب»، «عام سعيد»، «فيضان»، «خليج التين»، «حوض أزهار البرقوق»... غير أن أيّاً منها لا يتطابق مع المكان الذي تبحث عنه. لا شك في أن الاتجاهات والحافلات التي تنطلق من هذه القرية، برغم صغر حجمها، كثيرة. ففي يوم واحد قد ينطلق منها خمس حافلات أو ست، غير أن المؤكّد أيضاً هو أن خطّ «مصنع الإسمنت» ليس خطأ سياحياً. أمّا الخطّ الذي يشهد العدد الأقل من الركاب فلا يشهد إلاّ رحلة واحدة يوميّاً. لا بدّ أنّه المكان الأبعد من بين الأماكن النائية، غير أن وويي، نفسها، تقع عند طرف الطرف. لا تلفت النظر، شبيهة بجميع أسماء القرى، من غير «روح» تميّزها. أمّا أنت، ومثلك مثل الذي وجد أخيراً طرف الخيط من شلّة

متشابكة كان فَقَدَ الأمل في العثور عليه، فقد هداً روعك، إن لم تستخفّه بهجةً عارمة. عليك أن تشتري تذكرتك قبل ساعة من انطلاق الحافلة. أنت تدرك بالخبرة أنّه سيتعين عليك أن تخوض عراكاً فعلياً لكي تستقلّ الباص على هذه الخطوط الجبلية التي لا تسير عليها إلا رحلة واحدة في اليوم، وأنك إن لم تكن مُستعدّاً سلفاً، سيتوجب عليك أن تقفَ بالانتظار في صفّ طويل.

حتى الآن لم يزل لديك متسع من الوقت، لكنّ حقيقة السفر تزداد ثِقْلاً على كتفيك. تسيرُ متسكّعين في الأنحاء، والشاحنات المحمّلة بالخشب تكاد أن تلامس جنبك مسرعةً بمنبهاتها الزاعقة. تلاحظُ أنّ الشاحنات، من الأحجام كافّة، لا تكفّ عن إطلاق منبهاتها وهي تسلك الطريق الضيقة التي تخترق القرية. أمّا في الحافلات فيُبقى الجبّاءُ أذرعهم ممدودة من النافذة يطرقون الهيكل الخارجي باستمرار، مُضيفين بذلك إلى صخب الشارع صخباً، غير أنّها وسيلتهم الوحيدة لتبنيه المارة إلى ضرورة التّحّي جانباً.

جميع المنازل القديمة على جانبي الشارع لها واجهاتٌ من خشب. تُجعل الطبقة الأرضية دكاناً للبيع والشراء، والطبقة العليا مكاناً لنشر الغسيل: من حفاظات الأطفال إلى صدرّيات النساء، ومن الكلاسين المرقّعة إلى الشراشف ذات النقوش المزهرة، تتدلّى وسط الغبار وضجيج السيّارات، كأنّها رايات بلدان من العالم أجمع. إلى جانب الطريق، على أعمدة إسمنتيّة علّقت، في مَرَمَى البصر، شتّى أنواع اللافتات الإعلانيّة. تلفتك إحداها التي تروّج لمُنْتَج يُزِيل الروائح المنبعثة

من تحت الإبطين. وليس السبب لأنك تعاني من هذا المرض، بل يلفتك الابتكار في ديباجته. فبعد عبارة «صنة»، يرد شرح بين قوسين:

(الصنة وهي تُعرفُ أيضًا برائحةِ المخلّدين، هي مرض كريحه يُسببُ رائحةً منفرة. وبسبب هذا المرض يضطرّ كثيرون إلى تأخير زواجهم أو يواجهون صعوبات في عقد الصداقات. وغالبًا ما يعاني شبّان وشابات، وقد حال المرض دون إيجادهم عملاً أو دون التحاقهم بالجيش، أشدّ المعاناة من تبعاته من غير أن يجدوا حلاً. أمّا الآن فقد صار بالإمكان، وبفضل مُنتج صناعي جديد، إزالة الرائحة الكريهة. نضمن فعاليةً بنسبة ٩٧,٥ في المئة. لأجل حياة هنيئة وسعادة مستقبلية، اقصِدونا لتلقّي العلاج عندنا...).

ثمّ تبلغ جسرًا حجريًا. ما من رائحة كريهة. نسيمٌ عذبٌ يهبّ خفيفًا، منعشًا ومُستحبًا. الجسر الحَجَرُ يعلو نهرًا عريضًا. مع أن طريق الشارع مزقّت، لن يجد الناظرُ صعوبةً في تبيان النقوش القديمة لأسودٍ على الأعمدة المحزّزة. لا بدّ أنّه قديم جدًّا. متّكّنًا إلى إفريز الحجر المدعّم بالإسمنت، تستغرق في تأملٍ شطري هذه البلدة اللذين يصل بينهما الجسر. من الجهتين ما لا يُحصى من سطوح الآجر الأسود مُصطفّةً، على مدى البصر، في صفوف متراصة. بين الجبال مُنفرجٌ وادٍ حيث حقول الأرز التبريّة الصُفْرَة تترصّع، هنا وهناك، بغابات القصب الخضراء. تجري مياه النهر رقراقة الزُرْقَة، متهاديةً بين ضفتيّ مجراها الرمليّتين، فإذا بلّغت دعامات الجسر التي من حجرٍ منحوت افتقرت روافدٌ وازدادت عمقًا، ودكّنت مائلةً إلى خضرةٍ غامقة. وما إن تعبر

قوس الجسر حتى تضجّ هادرةً ويتشكّل زبدٌ أبيض على صفحة دَوَاماتها المتسارعة. خلّفت المياه معلّمها على مستويات مختلفة من سدّ الحجر الذي يزيد علوّه على العشرة أمتار. وأحدثها المائل إلى صفرة كابية، يرقى إلى فيضان الصيف الأخير. أُوَعِّل أن يكون هذا هو نهر يو؟ وهل ينبع من لينغشان؟

الشمس موشكة على المغيب. نصف كرتها البادي أشبه بغطاء قدرٍ برتقالي اللون. ما زال نوره ساطعًا، غير أنّه لا يُبهر الأبصار. تلتفت نحو المكان الذي تلتقي فيه جنبتا الوادي، هناك حيث تتشابك القمم في كنف الضباب والغيوم. رويدًا رويدًا يقضم هذا المنظرُ المُخادع لعتمة نابضة بالحياة النجم اللامع من الأسفل فيبدو مدوّمًا. وكلّما ازدادت الشمس احمرارًا، ازدادت عذوبةً وألقت بانعكاسات نورها المذهبة على صفحة النهر. فتمازج الزرقة الداكنة الأشعة المذهبة في تموج المياه وتدققها. كرة الأرجوان تفيض بالمزيد من السكون، غير أنّها في هبوطها إلى كنف الوادي تتمّ عن بعض إغواء يشوب رصانتها. ثم هناك الأصوات. تسمع منها صوتًا لا تُدرك مصدره لكنّ صداه يتردّد في أعماق قلبك ويشيع تدريجًا، يختلج قليلًا، كالواقف على أصابع قدميه، وينسلّ مبتعدًا ويتبدّد في المنظر الجبليّ الحالِك، مألّفًا سماوات ضبابية المغيب. ريح المساء تزعق في أذنك كزعيق منبّهات السيّارات المتّصل. وإذ تعبر الجسر تطالعك عند طرفه لوحة حُفرت حديثًا وعُلّمت بحروف الكتابة عليها بالأحمر: جسر يونغنينغ، شُيّد في السنة الثالثة من عهد كايوان من سلالة سونغ، وجرى ترميمه في العام ١٩٦٢. وثُبّتت

هذه اللوحة في العام ١٩٨٣. هي ذي العلامة التي تبشّر ببداية عصر السياحة.

عند طرف الجسر يطالعك صفّان من المطاعم الحقيرة. ويسع المرء، في تلك القائمة إلى جهة اليسار، أن يأكل قصعةً من خثيرة جبن الصويا، هذا الصنف من جبن الصويا الطري اللذيذ والمثبل بالبهارات الذي كان يُباع في الماضي في كلّ شارع وزقاق قبل أن يختفي لبعض الوقت، وقبل أن يُستأنف صنعه اليوم بفضل وصفة يرثها الأبناء عن الآباء. أمّا في صفّ المطاعم القائمة إلى جهة اليمين، فبوسعك أن تأكل طُلمِيَّتَيْن بالسّمسم والبصل، ساخنتين تَوًّا من باب الفرن مُشَهِيَّتَيْن؛ كما بوسعك، لو شئتَ أن تأكل — أين؟ ما عدتَ تذكر — كرات الأرز الدّبة المخمّرة، التي لا يزيد حجمها عن حجم حبّات اللّؤلؤ، والمُسكّرة بحسب الطلب. طبعًا، أنتَ لم تكن بمثّل حدّقة السيّد ما ثاني رحالة بحيرة الغرب، لكنّ شهيتك إلى الطعام مثل شهيتِهِ. تستمع إلى أحاديث الزبائن وأصحاب المحالّ الذين يعرفون الأمكنة هنا جيّدًا؟ مستمتعًا بتذوّق مأكّل أجدادك. كم تودّ أن تتقرّب إليهم وأن تختلط بهم متحدّثًا بلغتهم العذبة ذات اللهجة الجبلية. أقمتَ زمنًا طويلًا في المدينة وتحتاج، من أعماق قلبك، إلى تنمية هذا الحنين الطاغي إلى مسقط رأسك، وكم تودّ أن يمنحك هذا الحنين بعض الراحة، لكي تعود إلى زمن طفولتك، وتستردّ ذكرياتك الضائعة.

استطعت أخيرًا أن تهتدي إلى فندق في هذه الناحية من الجسر؛ فندق في شارع قديمٍ مبلّط بالأحجار. أرضيته كأنّها غُسِلَتْ حديثًا. على

أرضية الغرفة المفردة التي استأجرتها، مُدَّ لوح من الخشب مُغطى بحصير من القصب، وبغطاء قطنٍ رماديٍّ لا ندري إذا كان متسخاً أو إذا كان هذا هو لونه الأصليّ. تدسّ الغطاء تحت الحصير، وتبعد الوسادة الدبقة. لحسن حظك الطقس حارٌّ ولا تحتاج إلى غطاء أو وسادة. في تلك اللحظة تشعر بالحاجة إلى التخلّص من حقيبة ظهرك التي أضحت ثقيلة جداً، وإلى الاغتسال من الغبار والعرق الملتصق بجسمك. تستلقي على الفراش عاري الجذع مفرجاً ما بين ساقيك. في الحجرة المجاورة أصوات متداخلة. قاطنوها يلعبون الورق. تسمع بوضوح ضجيج الأوراق التي تُقذَف بقوة على الطاولة. مجرد لوح خشبي يفصل بين الغرفتين، وعبر شقوق ورق الجدران الممزق تلمح خيالات فتيان أشداء عراة الصدور. لست متعباً إلى حدّ الغرق على الفور في نوم عميق، فتضرب براحتك الفاصل بين الحجرتين. تملو أصوات موبخة في الجهة المقابلة. ليس احتجاجاً على ما فعلت أنت بل لأنهم يتشاجرون في ما بينهم، هم، بجوارك. هناك رابحون وخاسرون، والخاسرون يستأخرون الوفاء بديونهم. ففي هذا الفندق تجري المراهنات بالمال الصريح على الرّغم من تحذير شرطة المقاطعة المعلق في الحجرات كافة والذي ينصّ صراحةً على حظر القمار والبغاء. توذّ فعلاً أن ترى بأَمّ العين إذا كان هذا التدبير مطبّقاً. ترتدي ملابسك، وتدلّف إلى الممشى قارعاً باب الحجرة غير المغلق تماماً. تدخل مباشرةً دافعاً الباب بيدك. وإذا بأربعة رجال أشداء جالسين حول فراش وسط الحجرة يلتفتون نحوك. لا شيء في نظراتهم يوحي بأنهم فوجئوا بدخولك، بل أنت الذي يقف مذهولاً حيالهم. أربعة وجوه غريبة ألصقت عليها قصاصات ورق فغطّت

الحواجب والشفاه والأنوف أو الخدود. بدت الوجوه مخيفة بقدر ما هي مضحكة. غير أن أصحابها لا يضحكون بل يرمقونك بنظرات صامتة. لقد أزعجتهم، والواضح أنك أثرت غضبهم.

— آه، أنتم تلعبون الورق... فلا يسعك إلا أن تعتذر.

ويتابعون رمي أوراقهم. أوراق مستطيلة أكثر مما ينبغي وعليها رسوم بالأحمر أو الأسود، كما في لعبة ماه — جونغ. ومن بينها أيضاً الباب السماوي والسجن الدنيوي. ويُعاقب الخاسر من قبل الرابع بأن يلصق الأخير قصاصة من ورق صحيفة على موضع محدد. لعل الأمر مجرد دعابة خبيثة، أو طريقة في التعبير عن مكنون النفس، أم أنه معيار محدد سلفاً من قبل المراهنين يُتيح للخاسرين أو الرابعين أن يجروا حساباتهم الدقيقة على أساسه، ويستحيل على غير المعنيين أن يعرفوا ما هو بالضبط.

تغادر الحجرة قهقرةً، عائداً أدراجك إلى حجرتك. تستلقي على فراشك مجدداً محملاً في السقف متأملاً البقع المتراسة حول المصباح الكهربائي والتي هي، بالفعل، أعداد لا تُحصى من الناموس الكامن ريثما يُطفأ الضوء فينهال عليك بلسعته. تسارع إلى التحصن داخل الكلة. فالناموسية مثبتة بالسقف بواسطة حرف من القصب على هيئة دائرة، فإذا أرخيت شكّلت للنائم في كنفها ملاذاً أسطوائياً. منذ زمن بعيد لم تتم تحت هذا الضرب من الناموسيات، وقد تجاوزت العمر الذي اعتدت فيه أن تستسلم لأحلام يقظتك، محملاً بقمة السر الشفاف. أنت اليوم لا تدري أي نازع سوف يقود خطاك غداً، أنت الذي تعلّمت ما ينبغي لك

أن تتعلّمه، ما الذي سوف تسعى وراءه؟ أمّا وقد بلغت سنّ البالغين،  
أليس حريّاً بك أن تستكين لعيش هانئ، وتوفّي، من غير حماسة التشوّق،  
بالمناطق بكّ في وظيفة، ليست بالوضيعة وليست بالرفيعة، وأن تؤدّي  
دورك كزوج وأب، وأن تنشئ كنفاً وادعاً، وتقتصد بعض مالك في  
حساب مصرفيّ يجزيك الفوائد على مرّ الشهور حتى إذا آن أوان التقاعد  
غنمت منه ما تستعويض به عن وفير شقائك؟



## الفصل الثاني

عند منتصف الطريق بين النجاد التيببتيّة الشاهقة وبين حوض  
سيشوان، في بلاد إتنية شيانغ، في القطاع الأوسط من جبال تشيونغل،  
شهدت عبادة النار والبقية الحية من حضارة إنسانية أصيلة. أسلاف كل  
عرق من الأعراق عبدوا النار التي جلبت لهم تباشير الحضارة. إنها إله.

جالسًا قبالة النار، يحتسي شرابًا كحوليًا، ولكن قبل أن يتذوق قطرة  
منه، يغطّ إصبعًا في قدحه ويرجّه فوق الجمر الذي يستعر مهسهسًا باعًا  
دخانًا أزرق. وفي هذه اللحظة أدرك أنني موجود حقًا.

— هذه تقدمة لإله المنزل لأننا بفضلنا نعلم بما نشرب ونأكل.

وهج النار ينيرُ خديه الهزيلين وأنفه الطويل وتفاحتي وجنتيه  
البارزتين. يقول لي إنه ينتمي إلى إتنية كيانغ، وإنّ مسقط رأسه بلدة  
تدعى جينغدا. وإذا أشعر بالخرج من المبادرة فورًا إلى سؤاله عن الآلهة  
والشياطين، أكتفي بالقول إنني جئتُ لدراسة الأغاني الشعبيّة في هذه  
الجبال، وأسأله إذا كان الناس ما زالوا في هذه النواحي يؤدون رقصةً  
تسمّى الـ «جيشوانغ». فيقول إنه، هو نفسه، ما زال قادرًا على أداء

هذه الرقصة، وإنّ الرجال والنساء كانوا يرقصون حول النار في ما مضى حتى طلوع النهار، غير أنّ هذا الأمر أصبح محظوراً في ما بعد ذلك.

— لماذا؟ أعلم جيّداً ما هي الإجابة، ومع ذلك أطرح السؤال.

— بسبب الثورة الثقافيّة. قيل إنّ كلمات الأغاني غير بناءة فاستبدلت بأقوال — ماو.

— وبعد؟ مرّة أخرى أطرح السؤال عمداً، كأنها عادة قديمة لديّ.

— بعد ذلك، لم يعد أحد يُنشدّها. في الوقت الحاضر عاود الناس الرقص، ولكنّ قلة قليلة من الشبان تحسّنّه. لذلك أعمل على تدريبهم.

أسأله، راجياً، أن يؤدّي بعضها أمامي. فينهض على الفور، من غير تردّد، ويبدأ رقصاً مصحوبة بالغناء. صوته جهيرٌ وقوي، صوت طبيعي جميل. أنا مقتنع بأنّه ينتمي إلى إبتنيّة تشيانغ، غير أنّ رجال الشرطة الذين يعنون بالقيد المدني يرتابون في الأمر. فهم يعتقدون أنّ كلّ الذين يدعون الانتماء إلى الإبتنيّات التيببتيّة أو إبتنيّة تشيانغ إنّما يفعلون لغرض التملّص من قانون تحديد النسل وبذلك يُتاح لهم أن ينجبوا عدداً أكبر من الأولاد.

ينشد أغنية، ثم أخرى. ويقول إنّهُ يستطيع اللهو، وهذا رأيي أيضاً. لقد أعفّي أخيراً من مهمّته كشيخ للقرية واستعاد طبع أهل الجبال، طبع الجبليّ العتيق الممتلئ حيويّة. غير أنّه تخطّى، لسوء طالعهِ، سنّ المغامرات العاطفيّة.

كما أنه قادر على تلاوة الكثير من التعازيم، وهي صياغات سحرية يستخدمها الصيادون لحظة انطلاقهم قاصدين الجبل، ويسمونها «طريقة الجبل الأسود» أو «السحر». إنه لا يُنكر ذلك. ويعتقد اعتقاداً راسخاً بأن هذه الرقى قد تقود الطريدة إلى الكائن أو تحثها على الوقوع في الأشرار. ولا يُستخدم السحر ضد الحيوانات فحسب، بل قد يستخدمه البشر في ما بينهم لغرض الانتقام. وإذا استخدمت «طريقة الجبل الأسود» ضد إنسان كان مصيره ألا يخرج من الجبل حيّاً. وهذا اعتقاد يشبه حكاية سمعتها في طفولتي هي حكاية الشبح الذي يبني جداراً. رجلٌ يسلك في الليل درباً جبليّاً، فيسير، ويسير، وفجأة ينتصب أمامه جدار، سور يتعدّر تجاوزه أو نهر عميق المياه يستحيل عليه عبوره. وإذا لم يتمكّن من إزالة السحر أصبح مستحيلاً عليه أن يتقدّم خطوةً إلى الأمام، فيعود باستمرار إلى نقطة انطلاقه. وهكذا عندما يطلع النهار يُدرك أنه لم يفعل سوى المراوحة في مكانه. وثمة ما هو أدهى من ذلك: فقد يفضي السحر به إلى طريق مسدود، وإذا ذاك يكون الموت محتملاً.

يتلو الرقية تلو الرقية. ليست كنيية ووديعه كالأغاني، بل هي، على العكس، متسارعة مثل لهاث. لا أستطيع أن أفهم كل ما يقول، غير أن سحر هذه اللغة، والحضور الطاعي للمسوخ والشياطين الذي تُثيره، يملأن الحجرة المسودة بفعل السخام. ألسنة اللهب تلحس القدر حيث يُطبخ لحم الضأن على نار خفيفة، جاعلةً عينيه تقدحان شرراً: هذا ما نسميه مشهداً حقيقياً.

عندما تكون، أنتَ، منصرفاً إلى البحث عن الدرب المفضية إلى لينغشان، أكون، أنا، ساعياً، أثناء نزهتي على طول الـ «يانغشي»، وراء الحقيقة. بلغني للتو نبأ خطير. لقد شَخَّص الأطباء، خطأً، بأنني مُصاب بسرطان الرئة. مازحني الموتُ وتمكَّنتُ أخيراً من اجتياز العقبة التي وضعها أمامي. في قرارة نفسي، أشعر بالبهجة. إذ حَبَّتني الحياة مجدداً بنضارة لا توصف. كان ينبغي لي أن أهجر بيتي الملوثة منذ أمد بعيد، وأن أعود إلى الطبيعة سعياً وراء الحياة الحقَّة.

في الوسط الذي كنت أحيًا فيه، كانوا يعلمونني بأن الحياة هي منبع الأدب وبأن الأدب يجب أن يكون أميناً للحياة، أميناً لحقيقتها. ولعلَّ هذا مكنم غلطِي، وهو بالذات أنني حدثُ عن وجهة الحياة، وسرْتُ في الاتجاه المعاكس لحقيقتها. حقيقة الحياة لا تشبه صورتها الظاهرة. حقيقة الحياة، أي طبيعة الحياة، يجب أن تكون كما هي عليه لا على نحوٍ مغاير لها. وإذا كنت قد حدثُ عن هذه الحقيقة فلأنني لم أستعرض سوى سلسلة من ظواهر الحياة لا يسعها، بالتأكيد، أن تعكس حقيقتها بدقة. وكانت النتيجة أنني سلكْتُ الدربَ الخاطئ مشوِّهاً الواقع.

لا أدري إذا كنت أسلك، في الوقت الحاضر، الدربَ الصحيح؛ غير أنني أودّ، على كلِّ حال، أن أغادر العالم الأدبي وهو في نروة غليانه وأن أهجر غرفتي العابقة أبداً بدخان السجائر. الكتب المكدسة في أرجائها تعذبني حتى يضيق بها صدري. إنها تعرض لشتى أنواع الحقائق، من الحقيقة التاريخية إلى حقيقة السلوك البشري، ولا أدري ما

الفائدة منها. ومع ذلك تعرقل مسعاي وأتخبطُ في شباكها، لكأنني أعيش كحشرة عالقة في نسيج عنكبوت. لحسن طالعي أن الطبيب الذي أخطأ التشخيص قد أنقذ حياتي. كان رجلاً صادقاً. أعطاني صورتي الأشعة اللتين أجراهما لصدري. عند طرف الرئة اليسرى بقعة داكنة مبهمة الحدّ تمتدّ حتى القصبة. حتى استئصال الرئة اليسرى بالكامل لن يجدي نفعاً. مثل هذا الاستنتاج كان يبدو واقعياً. فوالدي توفيّ جرّاء سرطان الرئة، ولم تتعدّ المدة الفاصلة بين اكتشاف المرض والوفاة الثلاثة أشهر. الطبيب الذي شخّص مرضه هو ذاته الذي شخّص مرضي. وكنت أثق به كما كان هو يثق بالعلم. صورتنا الأشعة اللتان أجريتهما في مستشفين مختلفين جاءتا متطابقتين في كلّ تفصيل، لذا لا احتمال لأيّ خطأ تقني. كما حرّر لي تحويلاً طبياً لإجراء فحص بالمنظار بمضيّ خمسة عشر يوماً. لم أكن متحمساً لذلك لقناعتي بأنّ عمليّة التنظير سوف تؤكّد حجم الورم من دون شكّ. فقبل وفاة والدي جرت الأمور على نحوٍ مماثل، وكنتُ سائراً على خطاه، ولا جديد في ما يحصل. مع ذلك، أفلتّ من قبضة الموت، ولا يسعني القول إنني لم أكن محظوظاً. أنا أوّمن بالعلم، ولكنني أوّمن أيضاً بالقدر.

عابنتُ فيما مضى قطعةً من الخشب طولها يزيد على الثلاثة عشر سنتمراً كان عالم إناسة قد عثر عليها في الثلاثينيات في المنطقة التي تقطنها إتيّة كيانغ، هي عبارة عن محفورة لرجلٍ رأسه إلى أسفل، مستقرّاً على يديه الاثنتين، وقد خُطّت قسّمت وجهه بالأسود. على بدنه حفرت كلمتان: «حياة مديدة». كان يُسمّى «ووشانغ الذي رأسه إلى أسفل». وكان في مظهره حقاً ما ينمّ عن الشرّ. سألت صاحبي شيخ

القرية المتقاعد إياه إذا كان هذا الصنف من الآلهة الحارسة ما زال موجودًا إلى اليوم. قال إنها تُسمّى «لاوجن»: أي «الجذور القديمة». وينبغي لهذا التمثال الصغير أن يُلَازِم المولود طيلة حياته، حتى وفاته. بعد الوفاة يُحْمَل التمثالُ كما يُحْمَل الجنمان، وعقب الدفن، يوضع التمثال الصغير وسط الجبل لكي يساعد روح الميت في العودة إلى الطبيعة. ولَمَّا سألتَه إذا كان يستطيع أن يتدبّر واحدًا لي أحتفظ به، أجاب ضاحكًا أن الصيادين هم الذين يدسّونها في ملابسهم تعزيمًا للقدر، ولكن لا فائدة منها لمن هو مثلي.

— أيسعنا العنثور على صياد يجيد فنون السحر، قد أذهب برفقته في رحلة صيد؟

— الأب العجوز شي هو أمهرهم على الإطلاق، أجاب بعد تفكير.

— هل يمكن العنثور عليه؟

— إنه يُقيم في دارة الحجر العائدة إلى الأب شي<sup>(١)</sup>.

— وأين تقع هذه الدارة؟

— إذا تابعت السير صُعدًا من هنا مسافةَ عشرة لي<sup>(٢)</sup> سوف تبلغ وهذا منجم الفضة. ومن هناك سوف تتبع إلى النهاية مسقط المياه الذي يصبّ في الوهْدِ وسوف ترى داره من الحجر.

— أهو اسم يدلّ على مكان أم أنه حقًا منزل الأب شي الحجري؟

---

(١) اسم «شي» يعني في اللغة الصينية: الحجر.

(٢) الـ «لي» هو مقياس صيني يساوي ٥٧٦ مترًا.

يشرح لي أنّ الاسم هو اسم مكان، ولكن هناك فعلاً دارة من الحجر يقطنها الأب شي.

— أيسعك اصطحابي إلى هناك؟ سألتُ مجدداً.

— إنه ميت. مات في نومه، ممدداً على فراشه. كان عجوزاً هرمًا، جاوز التسعين عاماً، والبعض يقول إنه جاوز المائة من العمر. والحقيقة أنّ لا أحد يدري كم بلغ من العمر.

فلم أستطع إلا أن أسأل مجدداً:

— هل بقي أحد من ذريته على قيد الحياة؟

— كان من جيل جدّي... ولطالما قيل لي إنه عاش وحيداً.

— ألم تكن له زوجة؟

— كان يحيا وحيداً في وَهْدٍ منجم الفضّة، من دون عائلة أو منزل عائلي؛ منزل صغير يعيش فيه وحده. ولو تدري أنّ بندقيته ما زالت معلقة على جدار داره.

سألت عمّا يقصد بقوله هذا.

فقال شارحاً إنّ الرجل كان صياداً ماهراً، مولعاً بالسحر، لا نعثر على أمثاله اليوم. الجميع يعلم أنّ بندقيته ما زالت معلقة على الجدار في منزله، بندقية لم تخطئ الهدف مرة واحدة، ولكن لا أحد يجروء على أخذها.

لا أفهم لماذا.

— الطريق المفضية إلى وهْد منجم الفضّة مقطوعة.

— ألم يعد الدخول إليه ممكناً؟

— كلاً. والحقيقة أنّ أحدهم قرّر ذات يوم أن يفتتح منجم فضّة في ذلك المكان فعمدت شركة من شنغدو أن تستأجر عمالاً للعمل فيه. بعد ذلك تعرّض الموقع للنهب وغادر العمال. ثم تداعى المعبر المفضي إلى المنجم عبر الوهْد في أكثر من موضع منه أو أنه تآكل فتداعى.

— متى حدث ذلك؟

— حدث ذلك في حياة جدّي، أي منذ ما يُقارب الخمسين عاماً. ليس مستغرباً إذاً أن يكون في سنّ التقاعد اليوم. فهو ينتمي إلى التاريخ، التاريخ الواقعي.

— ومنذ ذلك الحين لم يدخل أحدٌ إلى الوهْد؟

أزداد تشوّقاً إلى معرفة مفتاح اللغز.

— هذا أمر غير مؤكّد، ولكن الوصول إليه ليس بالأمر اليسير على كلّ حال.

— والمنزل، هل اهترأ هو أيضاً؟

— كيف لمنزل من حجر أن يهترئ؟

— أقصد الدعائم.

— أجل، من دون شكّ.

أشعرُ بأنه يحاول ترهيبِي لأنه لا يرغب في اصطحابي إلى هناك،  
أو أن يعرفني إلى أحد الصيادين.

— إذا كيف تعلم أن البندقية ما زالت معلقة على الحائط؟ سألت من  
جديد.

— هذا ما يُشاع، ولا بدّ أن أحداً ما قد رآها. يُقال أيضاً إنّ الأب  
العجوز شي كان رجلاً ليس كسواه من الرجال حقاً. ويُقال إنّ جثته لم  
تتحلّل ولم تجرؤ الضواري على المسّ بها. إنّه ممدّد على فراشه،  
هزياً، متيّساً، وبندقية معلقة على الحائط.

— هذا أمر مستحيل، فدرجة الرطوبة مرتفعة جداً في الجبل، ولا بدّ  
من أن الجثة تحلّلت والبندقية استحالت كومة من الخردة الصدئة.

— لا أدري، هذا ما يتردّد منذ زمن طويل.

يواصل الكلام على سجيته غير آبه برأيي. ألسنة اللهب تبرق في  
عينيه اللتين أراهما مليئتين بالمكر.

أعاود طرح الأسئلة بالإصرار نفسه:

— أنتَ لم تره، أليس كذلك؟

— البعض رآه. كان يبدو نائماً. هزياً، متيّساً، وبندقية معلقة على  
الحائط، يتابع قوله بالوتيرة نفسها. كان عالماً بفنون السحر. لذلك ليس  
البشر وحدهم الذين لم يتجرأ أيّ منهم على الاستيلاء على بندقية، بل  
حتى الضواري لم تجرؤ على المسّ بجثته.

واضح جدًا أنه جرى تأليه هذا الصياد حتى قبل وفاته. ولمّا اختلط التاريخ بالشائعات والأقاويل، ولدت أسطورة شعبية. فالحقيقة لا توجد إلا في التجربة وليس التجربة بالمطلق بل في تجربة كلّ منّا، وحتى لو وُجدت في تجربة كلّ منّا فإنّها تستحيل حكاية حالما تتناقلها الألسن تواترًا. إذ يستحيل علينا البرهان على حقيقة الوقائع، ولا ينبغي لنا أن نفعل. لندع عتاة أهل الجدل يجادلون في حقيقة الحياة. فالمهمّ هو الحياة نفسها. وما هو حقيقي هو أنّني جالس بجوار هذا الموقد، في هذه الحجرة التي سودها السخام، وهو أنّني أرى ألسنة اللهب هذه متراقصة في عينيه، ما هو حقيقي هو أنا، وهو هذا الإحساس العابر الذي انتابني للتوّ، ويستحيل عليّ أن أنقله إلى الآخرين. في الخارج هبط الضباب، وامّحت الجبال المعتمّة، وصدى خرير مياه النهر المتدفّق في جريانه يتردّد في قرارة نفسك، فحسبك هذا.

## الفصل الثالث

وها قد وصلت إلى قرية ووي، في هذا الزقاق الطويل المبلط بالأحجار التي خلّفت عليها عجلات عربات اليد أثراً واضحاً. فجأة تعود إلى طفولتك، إلى تلك القرية الجبلية حيث قضيت معظم صباك تقريباً. غير أنك لم تعد تلمح عربات تُدفع باليدين. حلّ رنين أجراس الدراجات الهوائية محلّ صرير بكرات العناب المشحمة بزيّت الصويا. هنا يحتاج المرء إلى براعة بهلوان كي يسوق دراجة هوائية ويسير بها، بحمولة جرابٍ ضخّم، في مسارٍ متعرّج بين المارة والحمالات المزدوجة وعربات اليد ومفارش البضائع أمام الدكاكين. يصعب في حال كهذه اجتناب الشتائم، غير أنّ صخب ضحكات الباعة وصياحهم ممتدحين بضائعهم والزبائن المساومين على الأسعار، يجعلها زاخرة بالحياة. تتشوّخ خليطاً من روائح الخضار المملحة وأحشاء الخنزير والجلد المدبوغ حديثاً وصمغ البطم وقشّ الأرزّ والكلس. يقع بصرُك، إلى جانبي الشارع، على دكاكين الفواكه المجفّفة والصويا والزيت والأرزّ، على الصيدليّة حيث تُباع العقاقير الصينيّة والغربيّة، ودكان الأقمشة وأنسجة الحرير، على مفرش الأحذية المعروضة للبيع وبائع الشاي ودكان

الجزائر، والخياط والفرن حيث يُغلى الماء، والقدر الخزفية والحبال، ودكاكين البخور وأغطية الورق الجنائزية. حوانيت متلاصقة، بقيت على حالها تقريباً منذ عهد سلالة كينغ. مطعم «الرفاه الأصيل» القديم حيث تتلاطم، من غير توقّف، القدور ذات القعور المسطّحة المملوءة بالرافيولي المقلّية، استعداد لافتته التي كانت قد تحطّمت ذات يوم، وانبثقت رايته التي تعلن عن كونه مطعماً من «الفئة الأولى»، مرفرفة مع الريح. من الطبيعي أن يكون المخزن الذي تديره الدولة هو أكثر الحوانيت تميّزاً من حيث المظهر. فقد جرى ترميم المبنى الإسمنتي ذي الطبقتين، واستبدلت جدران المدخل بواجهة زجاجية، ويبدو أنّ الغبار الذي طالما غطّى أرجاءه قد بقي، هو وحده، على حاله. واجهات متاجر المصوّرين مميّزة هي الأخرى. تعجّ بصور الفتيات اليافعات اللواتي يتصنّعن الدلال أو المتأنّقات المتبرّجات. حسناوات من بنات الناحية يظهرن في أعين جمهور الناس أقرب منالاً من نجومات ملصقات السينما. والحقّ أنّ هذه الناحية قد شهدت ولادة جميلات أبهى من طُرف اليشّب، بوجناتهنّ المعطرة، وحواجبهنّ المخطّطة ببراعة يد المصوّر، حيث الأحمر مُسرّف في احمراره، والأخضر باذخ الاخضرار. هنا أيضاً يُعرّض على الزبائن تكبير الصور بالألوان. ويشير إعلان إلى أنّه بالإمكان الحصول عليها في غضون عشرين يوماً، ولكنّه يُغفل ضرورة الذهاب إلى عاصمة المقاطعة لأجل تظهيرها. لو لم يحالفك الحظّ لولدت ربّما في هذه البلدة، ولترعرعت فيها وأنشأت أسرة بزواجك من إحدى هؤلاء الحسناءات التي كانت ستتجب لك، ومنذ أمد بعيد، صبياناً وبنات. لمجرّد أن تراودك هذه الخاطرة تضحك وتبتعد مُسرّعا عن الواجهة كي

لا يظنّ أحدٌ أنّك مهتمّ بإحداهنّ فيطمئنّ إلى أوهامٍ لا أساس لها من الصحة. تستسلمُ لشروودِ ذهنك متطلّعا إلى الغرف ذات السقوف المنحنية فوق واجهات المباني. ستائر مُسدلة على النوافذ، ورود أو شتول بونساي موضوعة على الحواف. لا يسعك إلّا أن تسأل في سرّك كيف يحيا سكّان هذه الغرف. ثمة برج مرتفع بابه مغلقٌ بالقفل. دعائم سقفه المائلة وأطراف منجوره وإفريزه الخشب المنقوش والمهترئ بأكمله، كلّ ذلك يُشير بوضوح إلى حجم السلطة التي كان يتمتّع بها ساكنوه في ما مضى: ففي مصير مالك هذا المنزل وذريته ما يدعو إلى التأمل العميق. بالمقابل نرى أنّ الحانوت المجاور يُتاجر بيناطيل الجينز والتيشيرتات صناعة هونغ كونغ وجوارب النايلون. وقد ألصقت على واجهته صور لنساء أجنبيّات يستعرضن أفخذهنّ. على الباب وُضعت لافتة كُتب عليها بحروف مذهّبة: الشركة الجديدة للاستثمار التكنولوجي، ولا توضح اللافتة ما هي التكنولوجيا المقصودة هنا. على مقربةٍ مدخلُ حانوت جُمعت فيه كومة كلس أبيض. إنّهُ آخر الشارع، وعلى بُعد أمتار قليلة، يقع ما ينبغي أن يكون فيركة لشعيريّة الأرز. فسحة خالية نُصبِت فيها أعمدة ومُدّت في ما بينها أسلاك حديد تتدلّى منها فتائل الشعيريّة. تدير رأسك وتدلّف إلى زقاقٍ بجانب بائع الشاي، وتضيق مجدّداً في خضمّ ذكرياتك.

وراء مدخلٍ شبه مستور فناءٌ ضيق ورطب. حديقة مهملة، خلاء. في ركنٍ، كومة أنقاض. تذكر جيّداً هذا الفناء بجوار منزلك الذي انهار حائط سوره. كان يربحك ويجذبك في وقت معاً. كنت تحسّب أنّ إناث الثعالب التي يرد ذكرها في الحكايات تأتي من هناك. وبعد فراغك من

المدرسة كنت لا تقاوم رغبتك الدفينة في أن تقصد المكان نفسه معقودَ اللسان لشدة خوفك. لم تلمح يوماً أنثى ثعلبٍ هناك، غير أن إحساسك برهبة اللغز هذا لطالما خالط ذكريات طفولتك. كان يوجد هناك مقعد حجريّ مكسور وبئر جافة من دون شكّ. وفي عزّ الخريف كانت الريح تهبّ على السطح حيث تنمو أعشاب ذهبية الاصفرار، وتتوهج الشمس بكامل سطوعها. لهذه المساكن التي تظلّ أبوابها مغلقة حكايتها. تشبه بحذافيرها حكاية قديمة. ففي فصل الشتاء كانت الريح تُعولُ في جنبات الأزقة. وكنت تأتي منتعلاً حذاءك الجديد المبطن، برفقة صبحك من الأولاد، ضارباً الأرض برجليك طلباً للدفع، عند زاوية هذا الحائط، ولا بدّ أنك تذكر جيّداً هذه العديّة:

«في ضوء القمر، على صهوة الجواد البخور أحرقتُ، الأخت الكبرى لوو قتلتُ، الآتسة بسلة أغضبتُ، البسلة قطفتُ، لكنّ القرن كان فارغاً، من الأب جي تزوّجتُ، الأب جي ضئيل الجسم، من السلطعون تزوّجتُ، السلطعون اجتاز الحفرة، البزاقة تعثرت، البزاقة وشت به، ولدى الراهب شكته، آيات السوترا تلا، ولغوانيين تضرّع، الغوانيين بالّت، شيطاناً صغيراً بالّت، ما سبّب لها ألماً في بطنها، لقدّيس الثروة ابتهلّت، فإذا بالوجد يأتيه، أخفقتُ، ومئتي قطعة من النقود أنفقتُ».

على السطح، تتمايل الأعشاب اليابسة أو اليناعة، البيضاء أو الخضراء، مع الهبوب برفق. كم سنة مضت قبل أن ترى ثانية هذه

الأعشاب على السطح؟ حافي القدمين، تجعل لخطواتك خفقاً مسموعاً على البلاط الحجري المحزّز بآثار عربات اليد، تتبثق من طفولتك، وتطفو في الحاضر. باطن قدميك الحافيتين المتسختين يصفق أمامك. ليس الأهمّ حقاً أنّك صفقتَ بالقدمين على الأرض. فما تحتاج إليه هو هذه الصورة اللدنيّة.

تخرج في آخر المطاف من متاهة الأزقة هذه وتبلغ الطريق الرئيسيّة؛ وهناك سرعان ما تدور الحافلة القادمة من مركز المقاطعة نصف دورة وتتطلق عائدة أدراجها. على ناصية الطريق، تقع محطة الحافلات. وفي داخلها شبّاك للتذاكر وصفوف مقاعد طويلة. هنا نزلت من الحافلة قبل بعض الوقت. قبالة المحطة، تقريباً، منزل خفيض، فندق طُليت جدرانها بالكلس وعليه لافتة: **غرف جميلة في الداخل**. تتفقد المكان فيبدو لك نظيفاً. وعلى كلّ حال يجب أن تتدبّر مسكناً. تدخل نادلة جاوزت سنّ الشباب تكنسُ الممر. تسألها إذ كان لديهم غرفة شاغرة. تجيب باقتضاب «أجل». تسأل ما المسافة التي ما زالت تفصلك عن لينغشان. فتتظر إليك شزراً ما يعني أنّك في فندقٍ للقطاع العام. إنّها تتقاضى راتباً شهريّاً، وليس لديها ما تضيفه.

— رقم ٢. وبِعَصَا المكنسة تشير إلى باب مفتوح.

تدخل حاملاً حقيبتك بيدك. في الداخل سريران، يستلقي على أحدهما رجلٌ وقد ثنى ركبتيه، وبين يديه كتاب. العنوان: **السيرة غير الرسميّة لأثنى الثعلب**، مدوّن على ورق التغليف الذي يحمي غلاف الكتاب. من

الواضح أنه كتاب مستأجر من أحد الدكاكين. تُلقَى على الرجل التحيّة بإيماءة. يضع كتابه جانبًا ويحييك بدوره بحركة من رأسه.

— صباح الخير.

— وافد جديد؟

— أجل.

— هل تدخّن؟ ويرمي لك سيجارة.

— شكرًا. تجلس على السرير المقابل لسريره. يحتاج إلى صحبة كي يتحدّث.

— كم من الوقت ستمكث هنا؟

— نحو عشرة أيّام. يجلس ويشعل سيجارته.

— هل أتيت لأجل مشترياتك؟ تسأل لمجرّد السؤال.

— أنا أعنى بالخشب.

— وهذا أمر يسير في هذه النواحي؟

— هل تعرف القواعد؟ يسأل مهتمًا.

— أيّة قواعد؟

— قواعد الخطّة القوميّة.

— لا.

— إذا الأمر عسير. ويستلقي مجدّدًا.

- هل هناك نقص في الخشب أيضاً في هذه المناطق الحرجية؟
- الخشب متوفر، ولكن الأسعار مسألة مختلفة.
- لقد أدرك أنك لست خبيراً في هذا المجال لذلك يجيب عن أسئلتك بلامبالاة.
- هل تنتظر أسعاراً متدنية؟ أهذا كل ما في الأمر؟
- إنه شيء من هذا القبيل. يُجيب من غير تحديد، ثم يمسك بكتابه مجدداً.
- عليك أن تمتدحه قليلاً لكي تحظى منه على المعلومات التي تريد:
- أنتم عليمون بأمور كثيرة، أقصد أنتم الذين تجوبون الأنحاء لشراء المعدات والمواد الأولية!
- لا، على الإطلاق، يجيب بشيء من التواضع.
- كيف نصل إلى لينغشان؟
- لا جواب. لا يسعك إلا أن تشرح له بأن غرض زيارتك إلى المنطقة هو التمتع بمناظرها الطبيعية، وتسأله أين يعثر المرء على مواقع طبيعية خلابة.
- هناك مقصورة عند ضفة النهر. عندما تجلس هناك وتتأمل الجبل المقابل، يكون المنظر مقبولاً.
- سوف أتركك الآن لكي ترتاح، تقول بنبرة رتيبة.

تضع حقيبة سفرك وتذهب لتسجل اسمك قبل أن تخرج. عند طرف الطريق يقع رصيف الركوب. درجات سلم حجريّ منحدرّة إلى ما يزيد على العشرة أمتار نزولاً. وهناك ترسو مراكب مغطاة بحصر سوداء وبمحاجن من القصب. دفقُ النهر الرهيفُ يسيل في مجرىّ عريض حتى الإسراف. الواضح أنّ هذا ليس موسم الفيوض. على الضفة المقابلة ترسو معدّية وأناس يتدافعون لركوبها. كما أنّ الناس الذين يقتعدون درجات السلم من ناحيتك ينتظرونها جميعاً.

فوق رصيف المرفأ، على السدّ، تنتصبُ بالفعل مقصورة ذات سقفٍ أعقف. حولها، من كلّ صوب، سلياتٌ على هيئة كأس تاجٍ من القصب المحبوك، بداخلها جلس فلاحو الضفة المقابلة الذين فرغوا من بيع بضاعتهم. وإذا استمعتَ إلى أحاديثهم خيلَ إليك أنّك تستمع إلى حكايا سلالة سونغ. لقد أعيد طلي المقصورة حديثاً. تحت التسقيفة الأمامية نقوش تتانين وطيور عنقاء زاهية الألوان، وعلى العمودين الأماميين حُفر مثْلان متقابلان:

جالساً، تعرّف، من غير أن تفصح، عيوبَ الآخر

مُسافراً، تتذوّق المياه النقيّة للأهر العجيبة.

ثم تنتقل إلى الجانب الخلفي من العمودين. مثْلان آخران حُفرا عليهما:

عندما ترحل لا تنسَ الأمنيات التي يُسرّ بها إليك

استدرِ وتأمل موقع العنقاء في جبل الروح.

سرعان ما تستبدّ بك الحماسة. لا بدّ أن تكون المعديّة قد وصلت:  
جميع الذين كانوا جالسين متمتّعين بطراوة الخلاء قد غادروا متنكبّين  
حمالاتهم المزدوجة. ولم يبق منهم سوى رجل عجوز.

— لو سمحت أيّها العجوز، هاتان الجملتان...

— تقصد هذين المتلّين؟ أجب العجوز مصوّباً.

— أجل، أيّها العجوز، هلاً أخبرتني من الذي حفر هذين المتلّين؟  
تسأل بنبرة تريدها أن تكون أكثر توقيراً.

— إنه كبير المعلمين المجازين شين شيانينغ! يجيبُ مُشدّداً على  
الألفاظ، وبنبرة لا تخلو من ملامة. يفتح فماً لم يبق فيه سوى أسنان قليلة  
سوداء.

— لم أسمع بالرجل من قبل. لا يسعك إلّا أن تقرّ له بجهلك. في آية  
جامعة يُدرّس هذا الأستاذ؟

— من الطبيعي ألاّ تعرفه، لقد عاش قبل ما يزيد على الألف عام،  
يجيب بنبرة ازدراء صريح.

— لا تسخر مني أيّها العجوز، نقول محاولاً تبرير موقفك.

— هل نسيت نظارتك في مكان ما أم ماذا؟ يقول مشيراً إلى خرجة  
الدعامة.

ترفع رأسك نحو دعامة أفقيّة لم يعاود طلبها. وبالفعل تستطيع أن  
تقرأ عليها كتابةً بالحبر القرمزي: شُيِّدَتْ فِي الشَّهْرِ الْأَوَّلِ مِنْ ربيع سنة  
جينغجيا، السنة العاشرة من عهد شاوشينغ من سلالة سونغ، ورُمِّمَتْ  
فِي التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ الثَّالِثِ مِنْ سنة جياشو، السنة التاسعة  
عشرة لعهد تشيانلونغ من سلالة تشينغ.

## الفصل الرابع

أغادر مكتب الاستقبال في المحمية الطبيعية، أعود أدراجي قاصداً شيخ البلدة المتقاعد، من إنتية تشيانغ. أرى على الباب قفلاً ضخماً متدلياً. قصدت المكان ثلاث مرّات من قبل ولم أجده. وأحسب أنّ هذا الباب الذي كان من شأنه أن يفتح أمامي أبواب عالم غامض صار، من الآن فصاعداً، مغلقاً دوني.

أجوب الأنحاء متسكّعا تحت رذاذ مطر خفيف. منذ سنوات طويلة لم أمش في منظر مطر وضباب مثل هذا. أمرّ بجوار مركز مقاطعة وولونغ للعناية الطبيّة الذي يبدو مهجوراً؛ في الغابة يخيم سكون مطبق لا يُعكّره، ومن البعيد، إلّا نشيش مسقط ماء. منذ أمدٍ بعيد لم أشعر بخلوّ بالٍ مماثل. لا حاجة بي إلى التفكير، ألْبث شارد الذهن. لا أثر لإنسان أو سيّارة على الطريق العريضة، والخضرة حيثما تنقلّ بصرك، إنّهُ الربيع.

على ناصية الطريق منزل كبير، منعزل وفارغ. أكون هذا ملاذ زعيم الأشقياء سونغ غوتاي الذي حدّثني عنه أمس مساءً مفوّض المحمية الطبيعيّة السياسي؟ قبل أربعين عاماً كانت القوافل تسلك درباً جبليّاً وحيداً يمرّ من هنا. كان الدرب يعبر، إلى الشمال، جبال بالانغ

على ارتفاع يزيد عن الخمسة آلاف متر، ويخترق مناطق الإتنية التيبية الواقعة في أعالي نجاد تشينغهاي والتبت. أما جنوباً، فكان يمتدّ بمحاذاة مجرى مينجيانغ، متوغلاً في حوض سيشوان. وكان على المهرّبين الوافدين من الجنوب محملين بالأفيون، وأولئك الوافدين من الشمال محملين بالملح، أن ينصاعوا بطيبة خاطر إلى سداد ما يتوجّب عليهم من إتاوة، وأن يروا في ذلك تشريفاً لهم لأنّ جزاء الممتنعين عن سدادها هو تشويه وجوههم. وإذ ذاك تستحيل رحلتهم رحلةً من غير عودة في بلاد ملك الجهنّمات.

إنّه منزل قديم من خشب. دُرفتا الباب الغليظتان مشرّعتان على فناء فسيح بورٍ محاط بالمباني، وقد يتسع لقافلة بأكملها ولو تألفت من عشرات الأحصنة. أحسبُ أنّه كان يكفي، في ذلك الزمان، أن تكون البوابة مغلقة، وأن يتحصّن الأشقياء مسلّحين بالبنادق على الشرفات الخشب التي تزخّر قباب المباني لكي لا تسلم القوافل العابرة ليلاً من الكمين المعدّ لها. وحتى لو جرى تبادل لإطلاق النار، فليس في الفناء المكشوف زاوية واحدة لا تطاولها طلقات الأشقياء.

في الفناء سلّمان. أتسلّق أحدهما فتحدث الدرجات صريراً تحت قدمي. أتقدّم بخطى متناقلة مُعلنًا بذلك عن وصولي، غير أنّ الطبقة الأولى مهجورة هي أيضاً. أفتح أبواب الحجرات الفارغة، الباب تلو الباب، فلا أعرّ ورائها إلّا على الغبار وروائح العفن. فقط عمرة مال لونها إلى السواد متدلّية من سلكٍ حديدٍ وحذاء تالفٍ يشيران إلى أنّ ثمة من أقام هنا، قبل عدّة سنوات من دون شك. فمنذ إنشاء محمية طبيعية

جرى نقل جميع من كانوا يشغلون هذا المبنى الضخم من موظفين وهيئات: كتعاونية التموين والبيع، ومحطة شراء المنتجات المحلية، مخزن الزيت والحبوب، مركز الطب البيطري، إلى الشارع الصغير الذي لا يتعدى طوله المئة متر والذي أنشئ من قبل مكتب الإشراف. أما نحو المئة رجل الذين كانوا يجتمعون في الطبقة الأولى من هذا المبنى تحت إمرة سونغ غوتاي، فلم يخلفوا وراءهم أثراً، لا لهم ولا لبنادقهم. في ذلك الوقت كانوا يدخنون الأفيون، مستقلقين على حصرٍ من القش، متحرشين بنساء كانوا قد اختطفوهن. إذ كان عليهن أن يهيئن لهم الطعام أثناء النهار، وأن يتعاقبن على مضاجعتهم أثناء الليل. وأحياناً كانت تنشب شجارات بينهم بسبب قسمة جائزة للغنائم أو بسبب امرأة شابة، لا تُسوَّى، في النهاية، إلا باستخدام السلاح. أفكر بتلك الحياة الصاخبة التي لا بد أن تكون قد شهدتها هذه الأرضيات العتيقة.

— وحده زعيمهم سونغ غوتاي كان قادراً على إخضاعهم، فقد اشتهر ببطشه وسعة حيلته.

الرجل الذي نطق بهذه العبارة، وهو المفوض السياسي، رجل مقنع جداً عندما يتكلم. يقول إنه في فترات الدروس التطبيقية يتمكن من استدراج دموع الطالبات أثناء محاضراته عن حماية دببة «البندا» من الانقراض، أو حتى عن جوانب الشعور الوطني.

يقول إن إحدى النساء المخطوفات لدى الأشقياء ما زالت على قيد الحياة، وهي امرأة مقاتلة من نساء الجيش الأحمر. في سنة ١٩٣٦، وفيما كانت «المسيرة الكبرى» تعبر سهب ماورغ، تعرضت كتيبة من

الجيش الأحمر لكمين نصبه لها الأشقياء. فجرى خطف واغتصاب نحو عشرٍ من غسالات الـ «جياتغشي». أصغرهنَّ سنًا كانت في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرها، وهي الناحية الوحيدة. تتناقلتها أيدٍ كثيرة قبل أن يبتاعها جبليّ عجوز من إبتنيّة تشيانغ جعلها زوجته. وهي تعيش في الوقت الحاضر في أحد وديان الجوار. ما زالت إلى اليوم قادرة على استذكار اسم فرقتهما ووحدتها العسكرية واسم مدربها الذي أصبح اليوم أحد الموظفين الكبار. وإذ يزفر المفوض بحسرة عميقة، يردف قائلاً إنه، بالطبع، لا يستطيع أن يسرد الوقائع على مسمع تلاميذه، ثم يستأنف حديثه عن زعيم الأشقياء سونغ غوتاي.

في الأصل، يقول ساردا، لم يكن سونغ غوتاي سوى بائع جوال متواضع، يمتنّ تهريب الأفيون بالتواطؤ مع أحد التجّار. غير أنّ التاجر المذكور قُتل على يد زعيم الأشقياء في هذه الناحية، فعمل سونغ غوتاي مع هذا السيّد الجديد. وعلى أثر ألف مغامرة ومغامرة أصبح الرجل المقرب من الزعيم وعاش في فناء ضيق خلف المنزل. بعد ذلك دُمّر الفناء المذكور بمدافع جيش التحرير، حتّى نمت فيه الأشجار كما هو حاله في الوقت الحاضر. لقد كانت في تلك الحقبة بمثابة «شونغشينغ»<sup>(١)</sup> مصغرة. كان تشن، زعيم الأشقياء، منصرفاً، ليلَ نهار، إلى إشباع ملذّاته في غارِه المزدحم بخليلاته. وكان سونغ غوتاي هو الرجل الوحيد المخول خدمته في حرم منزله. وذات يوم مشرق، جاءت قافلة من ناحية

---

(١) إحدى كبريات المدن في سيشوان، وشهرتها مرادف المتعة والبذخ في تلك الحقبة.

مايركانغ، أفرادها في الحقيقة هم عصابة من الأشقياء، واستولت على هذا الملاذ المهيأ لاستقبالها. استمر القتال بين العصبتين يومين كاملين، وأسفر عن قتلى وجرحى من كلا الطرفين، من غير أن يُسفر عن منتصرٍ ومهزوم. فجرى التفاوض على الصلح، وأُبرِمَ أخيراً بين العصبتين بفرك الفم بدماء حيوان. وإذ ذاك فُتحت البوابة لاستقبال الخصوم. واختلط حابل الأشقياء المقيمين بنابل الأشقياء الوافدين في أرجاء المنزل، منصرفين إلى شرابٍ ولهو. والحقيقة أنها كانت مجرد خدعة من قبل الزعيم الأصيل كي يغرق أعداءه في حال من السكر الشديد. ولم يلبث أن أعطى أوامره لنسائه بأن يكشفن عن صدورهن وأن يحمن بين الموائد برشاقة الفراشات. فمن كان ليتغلب على عصابة الأشقياء هذه بوسيلة أخرى؟ شرب الجميع حتى الثمالة. وبقي الزعيমান وحدهما جالسين إلى المائدة. وبإشارة متفق عليها مع تشن العجوز، سكب سونغ غوتاي الشراب. ولكن في لحظة سكب الشراب استولى على المسدس ذي البكرة الذي كان الزعيم الخصم قد وضعه بجانبه، وبسرعة تفوق الوصف، أطلق رصاصتين أردتا كلاً من العجوز تشن وعدوه، ثم سأل الأشقياء الآخرين: «مَن منهم لا يرغب في الاستسلام؟» راح الأشقياء يتبادلون النظرات ولم ينبس أحد منهم بكلمة. عقب هذه الحوادث استقرّ سونغ غوتاي في منزل تشن العجوز وورث جميع نسائه.

يسرد على مسمعي هذه الحكاية بحماسة بادية. فالمؤكد أنه لا يكذب حين يزعم أن محاضراته تستدرّ دموع الطالبات. يقول بعد ذلك إنه في العام ١٩٥٠ حاصر جنود كتيبتين، تحت جنح الليل، المبنى والفناء الضيق، وعند الفجر أطلقوا نداءً يحثّ الأشقياء على تسليم سلاحهم

والعودة إلى الطريق المستقيم. كانت البوابة تحت نيران الأسلحة الرشاشة ولا أحد يسعه الفرار. كان يسرد الوقائع كأنه هو أحد المشاركين فيها.

— وبعد؟

— في البداية، قاوموا بالطبع، ودمّر الفناء الضيق بالمدفعية. فرمى الناجون أسلحتهم واستسلموا، ما عدا سونغ غوتاي. دخل الجنود وقتلوا المكان ولم يجدوا فيه سوى بضع نساء منتحبات. يُقال إن حجرته كانت مجهزة بممر سرّي يفضي إلى الجبل، غير أن أحداً لم يهتد إلى هذا الممر، وتوارى عن الأنظار. في يومنا هذا يكون قد انقضى أربعون عاماً. البعض يقول إنه ما زال حيّاً، والبعض الآخر يقول إنه ميت، ولا دليل على هذا الزعم أو ذاك. مجرد تخمينات.

يتكئ إلى مسند كرسي من الخيزران ويردف قائلاً وهو يعدّ على أصابعه:

— هناك ثلاث فرضيات حول مصيره: إحداها تفترض أنه فرّ إلى مقاطعة أخرى حيث أقام غُفلاً، وعاش حياة قروي عادي. والثانية تقول إنه مات أثناء المعركة، غير أن الأشقياء تكتّموا حول الأمر. فللأشقياء قواعدهم وأعرافهم بهذا الشأن. وباستطاعتهم أن يتقاتلوا في ما بينهم بما لا يوصف من الشراسة، غير أن أحداً منهم لن يعترف للخارجي بما يدور في الداخل. لهم أخلاقهم الخاصة — حسّ الفروسيّة لدى الخارجين على القانون — من دون التخلّي عن أشدّ ما في القسوة من القسوة. كما أن للأشقياء شخصية مزدوجة. أمّا النساء فما إن يدخلن هذا الملاذ، على

الرَّغْم من كونهنَّ مختطفات، حتّى ينتمين إلى العصابة ولا يخنّها مطلقاً  
وإن كان عليهنَّ أن يخضعن لإهانات أفرادها.

يهزّ رأسه، لا لأنّه لا يفهم، بل لعلّ الأرجح لأنّه يفكر في الحقيقة  
المعقّدة جدّاً للكائنات البشريّة.

— طبعاً لا يسعنا استبعاد الفرضيّة الثالثة: قد يكون فرّ إلى الجبل،  
ولم يقدر على الخروج منه، فمات جوعاً.

— هل سبق لأحد ما أن ضلّ طريقه في الجبل ومات فيه؟

— طبعاً! ولا أقصد فقط الفلاحين الذين قدّموا من مناطق أخرى  
لجمع الأعشاب الطبيّة، بل أقصد أيضاً الصيادين المحليّين الذين ماتوا  
هناك منهوكين من التعب.

— أحقّاً؟ عبارته الأخيرة تثير فضولي.

— العام الفائت، قضى أحدهم ما يزيد على العشرة أيّام في الجبل  
ولم يعد. أخطر أقرباؤه دارَ حاكم مركز المقاطعة الذي لجأ إلينا. فاتّصلنا  
بمخفر شرطة المنطقة الحرجيّة الذي أطلق بدوره كلباً بوليسيّاً بحثاً عن  
الرجل. أعطوه بعض ملابس المفقود كي يستروحها فيتتبّع الأثر. في  
النهاية عُثِرَ عليه ميتاً، عالقاً في صدع صخرة.

— هل هذا ممكن؟

— كلّ شيء ممكن. الذعر، الصيد المحظور... فالصيد محظّر تماماً  
في المناطق المحميّة. حتّى أن رجلاً قتل أخاه الصغير.

— لماذا؟

— اختلط عليه الأمر، وحسبه دُبًّا. كان الشقيقان ينصبان أفخاخاً في الجبل لجني المسك. المسك يدرّ مالاً وفيراً. اليوم، أصبحت الأفخاخ أكثر تطوّراً. يكفي أن يفكّك المرء كبلات وُرْشِ حثّ الحراج لكي يحصل على أسلاك فولاذ تسمح بأن يزرع الجبل بمئة فخّ في نهار واحد. المساحة شاسعة جداً فلا يسعنا مراقبة كلّ شيء، ولا حيلة أمام جشعهم الكبير. هذان الشقيقان نصبوا الفخّ تلو الفخّ في الجبل، ثم افترقا. فإذا صدّقنا الخرافات الشائعة في هذه الناحية لاقتنعنا بأنهما ضحيّتا سحر. كانا يطوّقان قَمّةً فوضعتهما الصدفة وجهاً لوجه. ولكثافة الضباب ظنّ الشقيق الأكبر أنّ خيال شقيقه الأصغر هو دبّ فأرداه. ثم عاد إلى منزله في منتصف الليل حاملاً معه بندقيّة شقيقه. وأسند البندقيّتين إلى باب زريبة الخنازير لكي تراهما أمّه حين تأتي عند الفجر لإطعام البهائم. ومن غير أن يعرّج حتى على بيته، عاد أدراجه إلى الجبل، وعندما عثر على المكان الذي مات فيه شقيقه، حزّ عنقه.

أنزل من المبنى الفارغ وأترّيث هنيئات في هذا الفناء الذي يتّسع لقافلة بأكملها، ثم أسير باتجاه الطريق العريضة. ما زالت مقفرة، لا سيّارات ولا مارة. أتأمّل الجبل الأخضر الذي يكتنفه الضباب قبّالتي. يلوح للعيان منحدر حرجي اكتسى بلون رماديّ، وقد أنلف تماماً ما عليه من أشجار. في ما مضى، قبل أن تُشقّ الطريق إلى هنا، كان المقلبان مكسوّين بأحراج كثيفة. فلطالما وددتُ أن أتوغّل في الغابة البكر، من غير أن أدري لم تتنابنى رغبة مثل هذه.

رذاذ المطر الخفيف يهمني من دون توقّف، ويزداد غزارةً، ناسجًا  
حجابًا شفيفًا، كاسيًا ذرى الجبال، ماحيًا الوديان والوهاد. رعدٌ هادرٌ  
وأصمّ يدويّ وراء القمم. أنتبه فجأةً إلى أنّ الصوت الذي يغلب على  
سمعي هو خرير النهر أسفل الطريق. لا يكفّ أبدًا، متدفّقًا على الدوام،  
بمجرّاه العنيف إيّاه. النهر النازل من الجبال المكّلة بالتلّوج نحو مصبّه  
في مينجيانغ يتدفّق بعنفٍ زاحرٍ بطاقةٍ خطيرةٍ وطاغيةٍ لا تمتلكها، في  
العادة، مجاري المياه السهلّة.



## الفصل الخامس

التقيتها قربَ المقصورة. كان انتظارًا ساهيًا، أملًا غامضًا، لقاءً بمحض الصدفة، غير متوقع. عند المغيب عدتَ أدراجك إلى ضفة النهر. أسفل درجات الحجر المنحوت يطفو صوت مضارب الغسيل واضحًا على صفحة المياه. هي واقفة، بقرب المقصورة. مثلك، تتطلع إلى الجبال الممتدة على مدّ النظر على الضفة الأخرى، ولا يسعك إلا أن تنظر إليها. إنها خارج مألوف هذه الدسكرة الجبلية الصغيرة: فلا قامتها ولا مظهرها ولا شرودها قد تتسجم مع سلوك أهل الناحية. تبتعد، ولكنك في قرارة نفسك، تفكر فيها، وعندما تعود أدراجك قبالة المقصورة، تكون اختفت. أعتمت الدنيا قليلًا. نقطتان حمراوان تلتمعان بين الحين والحين في الداخل، أناسٌ يتحادثون ويتضحكون بروية. لا تميز وجوههم، غير أنك تعلم، من نبرات أصواتهم، أنهم شابان وفتاتان. لا يبدو أنهم من هذه الناحية، هم أيضًا. نبرتهم واثقة، وأصوات جهيرة، سواء كانوا يمتازحون أو يتشاجرون. وإذا تصغي إلى الثنائيين تسمع تعداد الأساليب التي استخدمها كلّ منهم لخداع أهلهم وأرباب عملهم، وأيّ ذرائع ابتدعوها للتغيب من غير عواقب. وهم في الأثناء لا يكفون عن الضحك، مسرورين لجدوى صنيعهم. أما أنت، فقد جاوزتَ هذه السنّ،

وما عدت مضطراً لتحمل مثل هذه العوائق، وما عدت تشعر بمثل بهجتهم. لعلهم وصلوا إلى هنا على متن حافلة ما بعد الظهر، لكنك تنتبه فجأة إلى أن لا حافلة تأتي من مركز المقاطعة إلا في الصباح. لا بد إذاً من أنهم وصلوا بوسائلهم الخاصة. وهي من دون شك لم تأت برفقتهم، لأنها ليست مبهجة مثلهم. تغادر المقصورة، وتسير بمحاذاة النهر وتسلق الدرب الهابط قبالتك. أصبحت تعرف المكان جيداً: بين عدد من مداخل البيوت القائمة على ضفة النهر، هناك واحد، آخرها، هو محل لبيع الكحول والسجائر والورق الصحي، ومن بعده ينعطف الشارع المبلط باتجاه البلدة. بعد ذلك، نسير بمحاذاة الأسوار العالية المحيطة بفناءات المنازل، ولجهة اليمين، تحت المصباح الباعث ضوءاً شاحباً، باب أسود: مدخل دار بلدية مركز الكانتون. حجم مبانيها وارتفاع مبانيها الملحقة بأبراج حراسة يدلان على كونها دارة سابقة لأناس موسرين. على مقربة، بستان خضار مسور بجدار من الآجر المهشم، وقبائله مستشفى. وعلى الجهة المقابلة من زقاق فاصل، صالة عرض مشيدة حديثاً حيث يُعرض أحد أفلام الكونغ فو. لقد جبت أنحاء البلدة مراراً ولم تقترب منها، ومع ذلك تعرف مواقيت العرض المسائي. إذا سلكنا الزقاق الممتد بمحاذاة المستشفى يمكننا أن نصل إلى الشارع الرئيسي، قبالة المبنى الضخم للمخزن الكبير. كل شيء واضح في ذهنك، كما لو أنك أحد سكان هذه البلدة القدماء. وبمقدورك حتى أن تكون خير دليل سياحي فيها لمن يشاء من الزوار. وتشعر فعلاً بالحاجة إلى التواصل مع أحد ما.

ما لم تتوقعه هو أن يكون هذا الشارع الضيق عاجاً بالحياة في المساء. وحده المخزن الكبير أسدل بوابته الحديد الجرارة، وأحكم إقفال

نوافذ واجهته. الحوانيت الأخرى جميعها تبقى فاتحة أبوابها. وحدها  
المفارش التي تفرد أمامها أثناء النهار، تُكدّس جانباً ويوضع محلّها  
طاولات وكراسٍ أو حتى أسرة من القصب. والجميع يأكل أو يثرثر أو  
يشاهد التلفزيون الموضوع داخل الحوانيت. وفي الطبقات العليا، تلوح  
الخيالات المتحرّكة لساكني البيوت. البعض يعزف على المزمار،  
والأولاد ينتحبون. كأنه سباق من يحدث القدر الأكبر من الضجيج. آلات  
التسجيل تبثّ أغاني كانت رائجة في المدينة قبل بضع سنوات. وعلى  
الرغم من كونها تُغنى بنبرة رخوة ومتكلّفة، فإنّها تتسجم كلياً مع إيقاع  
الموسيقى الإلكترونية العنيف. على عتبة أحد البيوت، رجل جالسٌ يُجادلُ  
جليسه. وفي اللحظة نفسها تخرج امرأة متزوجة ترتدي قميصاً مكوَّراً  
وشورتاً وتتعلّصندالاً من البلاستيك، حاملةً طستاً من المياه الوسخة  
وتلقّيها عبر الشارع. صبية يعبرون زرافات. فتيات يافعات يتسكّعن، يذا  
بيد، وكتفاً بكتف. وأنت، تلمحها فجأة أمام منضدة فاكهة. تحت الخطى.  
إنّها تشتري بعض ثمار الليمون الهندي، الليمون الهندي الوافد طازجاً  
إلى السوق. تقترب. وتساءل أنت أيضاً عن سعره. تتحسّس ليمونة مدوّرة  
تماماً، فاقعة الاخضرار، ثم تتابع طريقها. أنت أيضاً تقول إنّها حقاً ما  
زالت خضراء غير ناضجة. تلحق بها. هل أنت في إجازة؟ يُخيل إليك  
أنّها تجيبُ بنعم غير واضحة، مومئةً برأسها، مموجةً خصلات شعرها.  
تشعر بشيء من القلق، خشية صدّها لك. لم تكن تتوقّع أن تجيبك بمثل  
تلك العفوية. لذا تسترخي أعصابك وتسير معها جنباً إلى جنب.

— هل جئتِ أنتِ أيضًا لأجل لينغشان؟ عليك أن تكون حاضراً ذهن أكثر مما تفعل. هزّت رأسها فماج شعرها مجدداً. لقد اهتديت إلى لغة مشتركة بينكما للتخاطب.

— هل أنتِ بمفردك؟

لا تجيب. أمام حانوت مُزَيّن مزوّد بلمبة فلوريسان، ترى وجهها، يافعاً جداً، ولكن عليه علائم التعب، ما يزيد في حسنه إثارة. ولدى رؤيتك امرأة معتمرة خوذة كهربائية لتجعيد الشعر، تقول إنّ الحداثة تسير على أكثر من قدم وساق في هذه النواحي. تتحرك عيناها قليلاً، ثم تضحك. تقلدها. شعرها الأسود اللامع الطويل منسدل على كتفيها. تود أن تقول لها إنّ شعرها خالٍ من العيوب، ثم تقول في سرك إنّ في الأمر شيئاً من المبالغة فتُحجِم. تمشي بجانبها، لا تنبس بكلمة أخرى، لا لأن لا رغبة لك في التقرب منها، بل لأنك فجأة ما عدت تدري ماذا تقول. وبيعض الحرج تحاول أن تنقذ نفسك من هذا الموقف.

— هل لي أن أصحبك بعض الطريق؟ عبارة بلهاء أخرى.

— أنت شخص غريب!

يتهيأ لك أنها غمغمت قائلة ما سمعت: عبارة تفيد الموافقة كما تفيد العكس. لكنك تشعر بأنها تُبدي سروراً ما، فتمشي على وتيرة خطاها الرشيق. والحققة أنها ليست مجرد طفلة، كما أنك، أنت أيضاً، لم تعد يافعاً. تود أن تحاول استمالتها إليك.

— أستطيع أن أكون مرشدك السياحي، تقول. هذا بناء من عصر سلالة مينغ، يعود بناؤه إلى نحو خمسمئة عام على الأقل. وما تشير إليه

هو حائط السور خلف حانوت العقاقير التقليدية الذي تبدو سقفيات مدخله المشمّرة الحواف، القائمة على جبهات جَمَلُون، وكأنّ ضياء النجوم يُبرزها من كنف العتمة. لا ضوء قمر هذا المساء. وقبل خمسمئة عام، في عهد سلالة مينغ، لا بل قبل بضعة عقود من الزمن، لا أكثر، كان على المرء أن يتزوّد بمصباح لكي يسير ليلاً في هذا الشارع. وإذا كنت لا تصدّيقين ما أقول، فما عليك إلا أن تغادري الشارع متوغّلة داخل الأزقة المظلمة المعزولة، عندها يعود بك الزمن إلى الماضي على بعد خطوات، لا أكثر، من هذا المكان.

بينما تتبادلان أطراف الحديث تجدان نفسيكما أمام بيت الشاي المُسمّى «الأريج الأسمى». أمام بابه، عند زاوية الشارع يتزاحم أشخاصٌ كثرٌ، أطفالاً وبالغين. وإذ تلقيان بنظرة إلى الداخل، تتوقّعان بدوركما. في الصالة الطويلة الضيقة، جُعِلَت الطاولات صفوفًا. والرووس تتراصّف في خطّ مستقيم فوق المقاعد الموضوعة بالعرض، وتتوسّط طاولة مستديرة. نسيج أحمر مطرّز بنقوش صفراء يتدلّى منها. وفي الخلف، على مقعد طويلٍ مُرتَفَع القوائم، يجلس راوٍ وقد ارتدى ثوبًا طويلًا ذا كُمّين فضفاضين.

«في الغرب تغيب الشمس، غيوم ملبّدة تحجب القمر، وفي طليعة الشياطين، يقصد الأفعوان الأب والأفعى الأم، على جري عادتهما، معبد السّعة اللازوردية الكبير. كانت فرحتهما عظيمة إذ رأيا الصبية والفتيات الصغيرات المسمّات طريّات البشرة، ورأيا الخنازير والأبقار والخراف معروضة على الجانبين. فقال الأفعوان الأب للأفعى الأم: بفضلِكَ أنتِ يا

زوجتي الحبيبة، أرى اليوم هدايا عيد مولدي بمنل هذه الوفرة. فتجيبُ  
الأفعى الأمّ قائلة: اليوم هو عيد مولد السيّدة أمك، فلنحرص على أن  
تكون آلات العزف متوافرة». طق! لكي يوقظ الحضور يضرب سطح  
الطاولة بالمُطَقِّطة التي يحملها بيده: «أحسنتم!».

ثم يضع المُطَقِّطة على الطاولة ويمسكُ بمِرْعَةٍ يضرب بها طبلاً ذا  
جلدة غير مشدودة بإحكام، مُطلقاً قرعاً رتيباً، وباليَد الأخرى يُمسِكُ  
بطارة مزودة بأقراص معدنية. يهزّها برفق فتحدثُ رنيناً، ويستأنف  
السرد بصوتٍ أبخ:

«من فورهِ يُصدر الأفعوانُ الأب أوامره، وينهمك الجميعُ بتنفيذها.  
وبلمح البصر يُزيّن المعبد وتصدح موسيقى الآلات». ثم يرفع صوته  
على نحوٍ مباغت: «وكان الضفدع يغني بأعلى صوته، والبومة الصمعاء  
تلوح بمخصرتها». تلعو نبرته فجأةً مفخمةً شبيهةً بنبرة ممثلي التلفزيون،  
ما يُثير قهقهةً بين الحضور.

تتظر إليها وتضحكان سوياً. هذه البسمة هي ما كنتَ تنتظره.

— هل ندخل؟ وجدتُ شيئاً تقوله. تتقدّمها جانباً الطاولات والمقاعد  
وأرجل الناس. تختار مقعداً ما زال فيه مطرَحٌ شاغر، وتجلسان في  
المطرح الضيق متلاصقين. تلاحظان أنّ الراوي أثار حماسة الحضور  
في الصالة. ينهض، ويضرب الطاولة مجدداً بمُطَقِّطته مُحدثاً فرقة  
مدوية.

«يبدأ احتفال عيد المولد! الشياطين...» ومُطلقاً أصواتاً مختلفةً أي  
آي آي، أوي أوي أوي، يلتفتُ يسرةً رافعاً قبضةً غطّتها يده الأخرى

بمثابة تبريك، ثم يلتفت يمنة ملوحًا بيديه الاثنتين، مقلدًا شيطانًا عجوزًا:  
«أرجوكم، أرجوكم!».

— قد يُخِيلَ لِمَن يسمعه أنه يسرد هذه الحكاية منذ ألف سنة، تسرّ  
في أذنّها قائلًا.

— وبوسعه أن يواصل سردها، تجيبُ قائلةً.

— لألف سنة أخرى؟

— أجل، تغمغمُ قائلةً من شفّتها المضمومتين كولدٍ مكرر. الأمر  
الذي يُشعرك ببهجةٍ دفيئة.

«ثم تمكّن تشين فاتونغ هذا في ثلاثة أيام من إتمام الرحلة التي  
تستغرق عادةً سبعة أمثال سبعة التسعة والأربعين يومًا إلى سفح جبال  
دونغ غونغ. والتقى هناك وانغ التاوي. فانحنى فاتونغ أمامه: السلام لك،  
أيّها المعلّم الموقر. فأجاب التاوي: السلام لك، أيّها الزائر المُكرّم. هلاً  
تدُلّني، لو سمحت، أين يقع معبد السّعة اللازوردية؟ ولم تسأل؟ لقد  
ظهرت هناك شياطين ضارية، مُرعبة، فمن يجروُ على الذهاب إليه؟  
خادمك المدعو تشين، وكنيته فاتونغ، قدّم خصيصًا للقبض على هذه  
الشياطين. يقول التاوي بشيء من الحسرة: للأسف الشديد، اليوم ذهب  
صبية وفتيات يافعات إلى هناك، ولعلّهم التّهّموا الآن، من يدري؟ لدى  
سماعه هذا الكلام، صاح فاتونغ: آي! يجب أن نهرع لإنقاذهم!».

طق! يمسك الراوي بيده اليمنى مقرّعة الطبل ويده اليسرى يهزّ  
طارة أجراسه. يُجِيلُ بصره في الأرجاء مبحلقًا بعينين بيضاوين مُتمتّمًا

وقد سَرَت رعدة في جسمه... تشتمّ عطرًا خفيفًا يسري فجأةً وسط روائح  
التبغ والعرق الحريفة. عطر يفوح من شعرها، منها. وتسمع أيضًا  
قرقشةً بزور البطيخ تحت أسنان جارك الذي لا تحيد عيناه عن الراوي  
مرتدًا ثوبَ الاحتفالات. بيده اليمنى يمسك بالسكين المقدّس، وبيده  
اليسرى يمسك بقرن التّنين. يتسارع نطقه الكلمات أكثر فأكثر، كأنما  
تلفظ شفتاه سبحةً لآلئ:

«ثلاث ضربات، طق، طق، طق، يُصدر ثلاثة أوامر سيرٍ لحشدِ  
جنود وقادة جبال لوشان وماوشان ولونغهوشان السماويين، أويي يو،  
هاها تا، كولونغ تونغتشيان، اينيا... يا... يا... وهو... أيّها الربّ  
السماوي، يا إمبراطورة الأرض، إنّي تلميذ تشنجون الذي أرسلني لقتل  
الشياطين. بيدي السيف، أخلق أينما شئتُ بعجلاتي التي من نار  
وريح...».

تستدير وتتهض. تتبّعها متعدّيًا أرجل المشاهدين الذين يرمقونك  
بنظرات حانقة.

— مُستعجلان كمرسوم إمبراطوري!

قهقهات تتردّد خلفكما.

ما الذي دهاك؟

لا شيء!

لمَ لا تبقيين؟

أشعر بغثيان خفيف.

هل أنت متوَعكة؟

لا، أصبحت أفضل حالاً. كان الجوّ ضاغطاً في الداخل.

تسيران في الشارع، والناس الذين يتبادلون أطراف الحديث جالسين على الجانبين ينظرون إليكما.

دعينا نبحث عن ركنٍ هادئ. حسناً؟

حسناً.

تصحبها إلى زقاق، مُخَلَّفَيْن وراءكما الضوضاء والمصابيح. ما من مصباح واحد في الزقاق، هناك فقط نورٌ شاحبٌ يتسلَّل من نوافذ البيوت المضاءة. تبطئ في سيرها. تسترجع المشهد الذي تخيلته للتوّ.

ألا تجدِين أننا، وأنا وأنت، نشبه الشياطين التي عملوا على طردها؟

تطلق ضحكةً من القلب.

وتضحكان سوياً غير قادرين على تمالك نفسيكما، حتى جعلها ضحكُها تتحنى إلى الأمام.

خفق حذائها الجلد له وقع مختلف على الأرضيّة الحجر. عند طرف الزقاق، حقل أرز. ومن بعيد جداً تلوح تحت ضوء خافت بضعة مساكن. أنت تعلم أنّه مبنى المدرسة الوحيدة في هذه القرية، وأبعد منها، في ظلمة الليل الحائلة، تلوحُ أخيلة الجبال تحت ضوء النجوم الملتبس. تهبّ الريح. هواء عذبٌ يهبّ علينا كخفق أجنحة، ولا يلبث أن يبتعد مختبئاً في عطرٍ أكداًس الأرز المحصود. تتكئ على كتفها، فلا تبتعد عنك. تكفان عن الكلام، وتسيران قُدماً على الحوافّ البيضاء لحقول الأرز.

أعجبك المنظر؟

أجل.

أليس رائعاً؟

لا أدري، لا يسعني القول. لا تسأل.

تَقْتَرِبُ مِنْهَا مُلْتَصِقًا بِجَنْبِهَا، فَتَلْتَصِقُ بِجَنْبِكَ هِيَ أَيْضًا. تَحْنِي رَأْسُكَ  
لَكَی تَتَأَمَّلَ وَجْهَهَا. لَا تَمِيزُ مَلَامِحَهَا وَعَيْنَيْهَا، فَقَطْ تَلَاظِمْ أَنَّ أَنْفَهَا ذَلِيقٌ.  
تَنْشُقُ أَنْفَاسَهَا الْفَاتِرَةَ الَّتِي أَلْفَتْهَا. لَكِنَّهَا تَتَوَقَّفُ فَجَاءَ.

لنعد أدراجنا، تهمس قائلة.

إلى أين؟

يجب أن أرتاح قليلاً.

سأصحبك في طريق العودة.

لا أريد أن يصحبني أحد.

ولبثت مصممة على موقفها.

ألديك أصدقاء أو أقارب هنا؟ أم أنك جئت طلباً للراحة؟

لا تجيب. لا تعلم من أين جاءت وإلى أين تذهب. لا يسعك إلا أن  
ترافقها حتى الشارع العام. تغادرك على نحو مباغت وتختفي كأنها  
حكاية أو حلم.

## الفصل السادس

مخيّم مراقبة دببة الباندا المُقام على ارتفاع ألفي متر وخمسمئة، مُشَبَّع بالماء من كلّ ناحية. فراشي وأُعطيتي ترشح رطوبة. سبق أن قضيت فيه ليلتين. أثناء النهار أرتدي سترة الريش التي زودني بها المشرفون على المخيّم. جسمي نديّ من شدّة الرطوبة. اللحظة الوحيدة المحبّبة إلى قلبي هي اللحظة التي نجلس فيها حول النار لتناول حساء ساخن. قدر كبيرة من الألومنيوم معلّقة بسلك مثبت بعمود سقف الملاذ الذي يُستخدم كمطبخ. تحتها، الأغصان المكسّسة لم تقطع. تشتعلُ شيئاً فشيئاً فوق الرماد. تنبعث منها ألسنة لهب عالية هي أيضاً الإضاءة الوحيدة المتوفّرة للمكان. كلّما تحلّقنا حول النار لنأكل، يأتي سنجاب ويقف بجوار المطبخ مجيلاً بصره في الأرجاء بعينيه المدوّرتين. لا يُتاح للرجال أن يجتمعوا إلّا في موعد وجبة المساء. ويغلب المزاح على أجواء جلستهم. عند فراغهم من الأكل تكون السماء أظلمت تماماً، والمخيّم قد أصبح محاصراً من كلّ ناحية بالغابة الشاسعة المظلمة، فيتسلّل الرجال كلّ إلى ملاذه، منصرفين إلى أشغالهم تحت ضوء مصباح الزيت.

منذ سنوات طويلة وهم يعيشون في أعلى الجبال. قالوا كل ما  
يوتون قوله، وانتهى الأمر. ولا يدرون شيئاً من مستجدات العالم  
الخارجي. فقط يستخدمون رجلاً من أهل الجبل من إبتنة شيانغ لكي  
يأتيهم في سلّة على ظهره بالخضار الطازجة وقطع لحم الخنزير أو  
الضأن من آخر قرى الجبل، معبر وولونغ، القائمة على ارتفاع ألفي متر  
ومئة. مركز إدارة المحمية الطبيعية أبعد من القرية المذكورة ولا  
يقصدونه، مداورة، إلا مرة واحدة في الشهر، وربما مرة واحدة في أكثر  
من شهر، لكي يأخذوا فيه قسطاً من الراحة ليوم أو يومين. يقصدونه  
لقصّ شعورهم والاعتسال أو للحصول على وجبة طعام لذينة. أما إذا  
تراكمت أيام إجازاتهم المستحقة، فقد يستقلّون سيارة المحمية الطبيعية  
للقاء حبيباتهم في شنغزو أو العودة إلى أسرهم المقيمة في مدن أخرى.  
الحياة لا تبدأ في نظرهم إلا في تلك اللحظة. ففي المخيم، لا تصلهم  
الصحف، ولا يستمعون إلى الراديو. ريغان، إصلاح النظام الاقتصادي،  
التضخم، اقتلاع التلوث الروحي، جائزة «المئة زهرة» السينمائية،  
وغيرها وغيرها، كل هذا العالم الصاخب، البعيد جداً في نظرهم، لبث،  
هناك، في المدن. وحده حامل الشهادة الجامعية الذي ألحق بهم، في السنة  
المنصرمة، يضع سماعتين على أذنيه باستمرار. ولدى اقترابي منه  
وجدت أنه يتعلّم الإنكليزية. شاب آخر يدرس على ضوء مصباح الزيت.  
وهما الاثنان يستعدّان لمباراة الترقية إلى وظيفة مرشّح لرتبة باحث لكي  
يتمكّنا من مغادرة هذا المكان. مراقب آخر يدوّن على مخطّط  
طوبوغرافي جويّ كل إشارات الراديو التي يلتقطها كل يوم. فهذه

الإشارات تبّنها أجهزة إرسال مثبتة في أطواق دببة الباندا التي أُسِرَت ثم أُطلقت مجدّدًا في الغابة الشاسعة.

كان العالم النباتي الذي جاب برفقتي أرجاء هذه الجبال طيلة يومين قد استلقى بجانبني. ولا أدري إذا غفا أم لا. مستلقيًا بثنائي، متدثرًا بأغطيّتي الرطبة، لا أشعر بالدفء ولا أفلح، مهما حاولتُ، في تدفئة نفسي. يُخيل إليّ أنّ دماغي قد تجمّد هو أيضًا. مع أنّنا في شهر أيار الربيعي، ولكن طبعًا بعيدًا من هذه الجبال. أشعر بأنّ قرادة تنهش فخذي من الداخل. لا بدّ أنّها زحفت من تحت البنطال أثناء سيرنا فوق العشب خلال النهار. كبيرة بحجم ظفر الخنصر وصلبة مثل ندبة. أضغط عليها بقوة بطرف إصبعي فلا أفلح بانتزاعها. أعلم أنّ محاولة انتزاعها بقوة أكبر قد تؤديّ إلى قطعها إلى نصفين لأنّ فيها مطبق بشدة على لحم فخذي. وليس أمامي إلّا أن أطلب مساعدة أحد العاملين في المخيم المستلقي على فراش بجانبني. فينزع عني ملابسني ويضع فخذي بقوة منتزعا مصاص الدماء هذا. ثم يقذف به باتجاه المصباح الذي تتبعث منه على الفور رائحة شواء نفاذة. ويعدني بأن يتدبّر لي ضمادات في صباح اليوم التالي.

تحت سقيفة الملاذ يسود سكون مطبق. فقط يُسمَعُ تقطّر الماء المتساقط من أغصان الغابة. في البعيد تقترب الريح، غير أنّها لا تصل إلى هنا، كأنّها لا تلبث أن تعود أدراجها، مُغولةً بين جنبات الوهاد البعيدة السحيقة. ثم لا يلبث الماء أن ينشّ عبر الحائط الخشب، فوق

رأسي، مبللاً الغطاء الذي أتمدّث به. هل تمطر؟ أطرح على نفسي السؤال من دون أن أفكر. في الخارج، في الداخل، كل شيء رطب، وقطرات المياه تتساقط، القطرة تلو القطرة... عقب ذلك أسمع فرقة جليّة وقريبة يتردّد صداها في أرجاء الوهد.

— مصدرها الصخرة البيضاء، يقول أحدهم.

— تبّاً، إنهم يصطادون من غير ترخيص، يقول آخر واثقاً.

يستيقظ الرجال جميعاً، ولعلّ بعضهم لم يكن بعد قد غفا.

— كم الساعة الآن؟

— منتصف الليل إلّا خمس دقائق.

يصمت الجميع، كأنهم ينتظرون دويّ طلقة أخرى. ولكن لا شيء. ففي الصمت المقصوف الذي يبقى معلقاً، يتردّد خارج الملاذ وقع تقطّر المياه وأصوات أخرى لا تلبث أن تتلاشى في فضاء الوهد. فجأة، يُخيّل إلينا أننا نسمع دبيب حيوان برّي. ها هنا موطن الحيوانات البريّة، ومع ذلك، فإنّ البشر لا يدعونها وشأنها. في العتمة، ومن كلّ نحوٍ وصوب، نستشعر حياةً وحركة. الليل يبدو خطيراً ويوقظ في روعك ذلك الخوف الدائم بأن تكون مراقباً، أو مطارداً، أو على وشك الوقوع في فخّ. ويستحيل عليك أن تستردّ الطمأنينة التي تصبو إليها بقوة...

— إنه هنا!

— من؟

— بَيْبَي، هنا! يصيح الطالب قائلاً.

تسري بليلةٌ غير معهودة في أرجاء الملاذ. وكلّ من فيه يقفز من فراشه متأهباً.

في الخارج، تنفّس وهممة. فالباندا التي توعّكت إثر الوضع وأنقذوا حياتها، عادت، جائعةً، تبحث عن طعام! كانوا ينتظرون عودتها. كانوا واثقين أنها سوف تعود. فمذ عشرة أيّام كانوا يعدّون الأيّام مؤكّدين أنها ستعود. ينبغي أن تعود قبل نموّ شتول الخيزران الطرية، وهذا ما حدث فعلاً. وإذا بالغالية على قلوبهم تخرّشُ بمخالبها ألواح الجدار.

يفتح أحد الرجال الباب أولاً، ويتوارى حاملاً بيده سطلاً مملوءاً بعصيدة الذرة. يلحق به الحاضرون جميعاً. في العتمة التي تطمس الأشكال والألوان، تتراءى كتلة سوداء مترنّحة. يسكب الرجل محتوى دلوه في وعاء فتتقدّم الباندا مُهمّمة كأنها تلحق بالصوت وتائر أنفاسها. تُسلّط جميع بطاريّات الجيب على الحيوان الضاري، وعلى بدنه الرماديّ الأبيض، وقامتة الكالحة وعينيّه المحاطتين بالسواد. لا تعير الدبّة الأمر انتباهاً، فهاجسها العثور على الطعام، فتتقدّم مطأطئة الرأس. يخطر لأحدهم أن يلتقط لها صورة: التماع الفلاش يوشم عتمة الليل. يقترب الجميع منها، منادياً إياها باسمها، مداعباً فروتها الخشنة مثل فروة خنزير. ترفع رأسها فيفيض الرجال من حولها عاندين إلى ملاذاتهم. هذا حيوان برّي: فدبّة الباندا قادرة على قتال نمر. عندما جاءت للمرة الأولى لكي تأكل من وعاء الألومنيوم التهمت مع الطعام الماعون الذي تبرّزته في ما بعد قطعاً صغيرة. آنذاك تتبّع الرجال أثر برازها. وعند مزرعة

تربية الباندا الواقعة في وسط المحمية، عند أسفل الجبل، حاول صحفي كان يريد أن يبرهن للناس بأن الباندا مخلوقات لطيفة كالقطط أن يلتقط صورة لها برفقة إحداهما ممسكاً بذراعها. ضربة واحدة من مخالبتها كانت كافية لانتزاع أعضائه التناسلية، مما اضطرّ المسعفين إلى نقله بسيارة جيب إلى شغدهو لإنقاذ حياته.

لما فرغت من طعامها، راحت تعضض قصبه سكر ملوحةً بذنبها الضخم قبل أن تتوارى في دغل الخيزران بقرب المخيم.

— لطالما قلت بوضوح إنَّ بَيَّي ستعود ذات يوم.

— في العادة، هي تعود على الدوام في مثل هذا الوقت، بين الساعة الثانية والثالثة.

— سمعت هممةً عندما كانت تخرش الباب بأظافرها.

— ابنة الكلب، لها خبرة في التسول!

— كانت تتصور جوعاً، لقد التهمت كلَّ ما في الوعاء.

— تحسستها بيدي، لقد ازداد وزنها.

يتناقشون بحماسة، لا يغفلون تفصيلاً من التفاصيل: من منهم سمعها أولاً، مَنْ بادر إلى فتح الباب، وكيف لمحها أحدهم من صدع الباب، وكيف تبعوها ووضعوا رأسها في الدلو، وكيف ربطت بجوار الوعاء، وأكلت بنهم. أحدهم يقول أيضاً إنه أضاف السكر إلى عصيدة الذرة، طعام الباندا. فهو أيضاً يفضل الطعم السكري في الطعام! كأنَّ هؤلاء الذين لا يتبادلون الكثير من الكلام في ما بينهم في الأوقات العادية، إنما يتكلمون عن عشيقتهم، حين يتكلمون عن بَيَّي.

ألقيت نظرةً إلى ساعة يدي فإذا كلّ هذا لم يستغرق أكثر من عشر دقائق، غير أنّهم لا يكفّون عن الحديث بشأنه. مصابيح الزيت مضاءة، وعددٌ كبير منهم يجلس على الأسرة. فمّا لا شكّ فيه أنّ الحدث يجلب بعض البهجة إلى حياتهم الرتيبة المعزولة في أعالي الجبل. ثم تطرّقوا في حديثهم إلى هانهان، الباندا الآخر. لقد أفلقهم دويّ الطلقة التي سمعوها. كان هانهان قد قُتل في الجبل على يد فلاح يُدعى لينغ جيجونغ. ففي ذلك الوقت كانوا قد تلقّوا إشارات من هانهان مصدرها مكان واحد بعينه، كأنه مستقرّ في مكان واحد لا يتحرك. وإذ خيل إليهم أنّه قد يكون مريضاً وأنّ الحالة خطيرة، انطلقوا بحثاً عنه. وتمكّنوا من نبش جيفة هانهان في الغاب، مطمورة تحت ترابٍ ما زال رطباً، كما عثروا على طوقه المعدنيّ المزود بجهاز بثّ. ثم تابَعوا بحثهم، مصحوبين بكلب صيّد، إلى أن بلغوا منزل لينغ جيجونغ هذا حيث وجدوا جلد الحيوان ملفوفاً ومتمدّلياً من سقيفة المدخل. إشارات من باندا آخر يُدعى ليلي، كانوا أسروه وزودوه بطوق، اختفى هو الآخر في أرجاء الغابة الشاسعة. قد يكون أحد الفهود انتزع الطوق بضربة من فكّيه وربما انتزعه أحد الصيادين بضربة من عقب بندقيّته، لا أحد يدري على وجه الدقّة.

قُبيل بزوغ الفجر سُمع دويّ طلقتين في أجواء المخيم. وتردّد صداهما، هادراً، بين جنبات الوَهْد، كما ينتشر دخانٌ من فوهة مدفع، ولا يتبدّد إلّا بعد حين.



## الفصل السابع

تشعر بالندم لأنك لم تضرب لها موعداً، ولأنك لم تتبّعها، ولأنك لم تجرؤ على استمالتها بالكلام الرومانسي المعهود، وبالأوهام المعسولة التي لا تقوم علاقة غرامية من دونها. بالاختصار، تندم لأنك أخفقت. وأنت الذي نادراً ما تُعاني من الأرق، لم يغمض لك جفن تلك الليلة. وعند الصباح شعرت بأنك أحمق، ولكن لحسن الحظ أنك لم تكن متهوراً. قد يكون رحيلها المباغت نال من عزّة نفسك، غير أنك لا تلوم في ذلك سوى شفافتك وصدقك المفرط مع ذاتك. أنت لا تعرف كيف تحب، وقد أفقدك ضعفك المسرف رجولتك، ففقدت القدرة على المبادرة. وبعد تردد، صممت، مع ذلك، على الذهاب إلى ضفة النهر لكي تجرب حظك.

تجلس داخل المقصورة متأملاً المنظر أمامك، متبّعاً بذلك نصيحة الخبير في مبيعات الخشب. في الصباح يحتشد الناس عند رصيف الركوب. ويتكدسون على ظهر المعدية متزاحمين، فيعلو خطّ عومها على حافة التأزير. لقد رست للتوّ، وقبل أن تُربط حبالها يتدافع ركابها للنزول إلى الرصيف. كل شيء يصطدم بكل شيء، سلال الخيزران

المتدلية من الحمالات المزدوجة، والدراجات التي تدفعها الأيدي،  
والسباب المتبادل، والسير الحثيث في اتجاه البلدة. تعبر المعدية تكراراً،  
ذهاباً وإياباً بين الضفتين لكي تنقل المنتظرين على الضفة الأخرى. وفي  
النهاية يستعيد رصيف الركوب هدوءه. أنت وحدك في المقصورة،  
كالأحمق، تتظاهر بأنك في انتظار موعد لم يُضرب، وفي انتظار امرأة  
اختفت ولم تخلف أثراً، مثل حلم في وضح النهار. أنت تعلم، في قرارة  
نفسك، أنك تعيش حياة مملّة، ما من شرارة تعكّر رتابة مجراها، ما من  
شغف، وجلّ ما تعرفه وتختبره هو السأم. أما زلت ترغب في أن تحيا  
من جديد، في أن تعرف، في أن تخوض التجارب؟

فجأة تدب الحياة مجدداً عند الضفة، ولكن مصدرها، هذه المرة،  
أعداداً من النساء. جالسات إحداهن لصق الأخرى على سلاسل الحجر التي  
تلامس المياه، منصرفات إلى غسل الملابس أو الخضار أو الأرز.  
زورق مغطى بحصر الخيزران يدنو من الضفة، والرجل الذي يدير  
الدفة عند مقدمه يصيح بهنّ. يرحن يثرثرن فيما بينهنّ من غير أن  
يفسحنّ له مجالاً. ولا تدري فعلاً إذا كان ما يجري هو مشاكسة بين  
عشاق أم أنه حقاً عراك. ثم أخيراً، تلمح خيالها. وتقول لها إنك كنت  
تحسب أنها ستعود، إنها ستعود إلى جوار هذه المقصورة التي يحلو لك  
أن تسرد لها قصتها. وتقول إنّ عجوزاً حكاها لك، وإنه كان جالساً هنا  
هو أيضاً، نحيلاً كعود حطب، محرّكاً شفتيه اللتين جففتها الريح،  
مُدّماً مثل شبح. تقول إنها تخاف الأشباح، فتؤثر عندئذ أن تؤكد لها أن  
تمّتماته كانت أشبه بعويل ريح بين خطوط للتوتر العالي. وتقول إنّ هذه

البلدة ورد ذكرها في كتاب «مذكرات تاريخية» لمؤلفه سيما تشيان<sup>(١)</sup> وإن رصيف الركوب قبالتكما كان يُسمّى في ما مضى بـ معبر يو، لأنّ هنا، كما يُقال، تمكّن يو العظيم من تدجين المياه. عند الحاقّة، صخرة مستديرة منحوتة، نقرأ عليها بصعوبة سبعة عشر حرفاً قديماً على هيئة فرخ الضفدع. وبما أنّ أحداً من الناس لم يتمكّن من فكّ رموزها، عمدوا إلى اقتلاع الصخرة لبناء جسر، ولكنّ الجسر لم يُبنَ في النهاية لعدم توفّر المال اللازم. ثم تشير إلى الجمل المتوازية التي دوتت بيد أحد معلّمي عصر سلالة سونغ. ذلك أنّ جبل الروح هذا الذي جنت بحثاً عنه مذكور منذ أمدٍ بعيد من قبل القدماء. والقرويون الذين يعيشون هنا جيلاً بعد جيل لا يعرفون قصّة هذا المكان كما لا يعرفون قصّتهم هم. ولو دوتت، من غير إضافة أو اختلاق، القصّة الخفيّة لهؤلاء الناس المقيمين في بيوت هذه البلدة وحجراتها، لذهل الروائيون أشدّ الذهول. تسألها إذا كانت تشاطرك الرأي أم لا. مثلاً، تلك المرأة العجوز الدرداء، المتغضّنة الجلد مثل ثمرة لفت محفوظة في نقيع الملح، مثل مومياء حيّة، التي تحقّق في البعيد جالسةً على عتبة بيتها، والتي لا يتحرّك فيها إلّا حدقتها الكابيتان في قعر محجريهما العميقين. لقد حظيت في ما مضى بساعات مجدها وفي محيط يتعدّى عشرات الأميال كانت تُعدّ من أجمل جميلات الناحية. فكيف لا تكون حينئذ محطّ أنظار الجميع؟ وكيف لأحد أن يتخيّل في الوقت الحاضر ما كانت عليه من الحسن في ما مضى؟ لا بل من يتذكّر الآن يوم كانت زوجة شقيّ. وكان زعيم الأشقياء السيّد الثاني

(١) مؤرّخ صيني مشهور عاش بين العام ١٤٥ والعام ٨٦ ق. م.

لهذه البلدة. في ذلك الوقت، كان الجميع، شبيبا وشباناً، يسمونه السيد الثاني، طبعاً في معرض امتداحه من ناحية، ومن ناحية أخرى، لا بل وخاصة، بدافع الاحترام، فهو «ثاني» لجهة مكانته في أسرته، وأيضاً لجهة كونه «أخاً محلقاً» في عصابة أشقياء. حتى لو كان الفناء الذي تجلس أمامه ضيقاً، فإن ما يطالعنا حالما ندخله، هو الفناء تلو الفناء، متتالية، وكان الأشقياء، في الماضي، يخرّتون فيها النقود الفضة، ملء سلال. في هذه اللحظة يشخصُ بصرها باتجاه الزوارق المكسوة بحصر الخيزران. فعلى متن زورق مماثل خُطِفَت ذات يوم. في ذلك الزمان كانت مثل تلك الفتيات ذات الجدائل الطويلة اللواتي يضربن غسيلهنّ على سلالم الحجر. والفرق الوحيد هو أنّها حين هبطت السلالم في ذلك اليوم قاصدةً النهر لغسل الخضار، وببيدها سلّة خيزران، كانت تتعلّ قبقاباً من خشب وليس حذاء من البلاستيك. رسا بقربها زورق مغطى بحصر الخيزران. وقبل أن تدرك حقيقة ما يجري من حولها، لوى رجلان ذراعيها وحملوها عنوةً إلى الزورق؛ وقبل أن تصيح طلباً للنجدة كمّموها. لم يكن الزورق قد ابتعد أكثر من خمسة لي عندما تعرّضت للاغتصاب من قبل عدد من الأشقياء. ففي هذا الزورق، شأن كلّ الزوارق التي تسلك مجرى النهر منذ ألف عام، يمكن للمعتدي أن يرتكب ما يحلو له من المعاصي تحت ستار حصير الخيزران وفي وضوح النهار. أمضت ليلتها الأولى، ممدّدة على ظهر القارب، عارية تماماً، غير أنّها، منذ الليلة الثانية، أصبحت توقد النار في مقدّمه وتعدّ لخاطفيها الطعام...

أخبرني المزيد؛ ماذا أخبرك؟ أخبرني كيف أصبحت امرأة السيد الثاني. أهي دائماً على هذه الحال، جالسة عند العتبة؟ طبعاً، في ذلك الزمان لم تكن لها هذه النظرة الكابية. كانت تحمل معها على الدوام طارة من الخيزران وتشغل نفسها بالتطريز. وبأصابعها السمينة البيضاء كانت تطرز نقش «الأوزات المندريات اللاهيات على صفحة الماء»، أو نقش «الطاووس الناصر ريش ذنبه». كما أنها استبدلت جديلتها السوداء بكعكة مضمومة عند مؤخر الرأس مشبوكة بدبوس فضة مرصع باليشب؛ أما حاجباها المرسومان بدقة فكانا بيرزان حسن وجهها. وعلى الرغم من فتنتها لم يكن أحد ليجرؤ على مخاطبتها. كان الجميع يعلم أن طارة الخيزران التي تحملها تحتوي على لفائف من خيوط الحرير المتعددة الألوان، ولكن تحت خيوط الحرير يوجد، على الدوام، مسدسان مختران. كان يكفي أن يرسو زورق عند الضفة وينزل منه جنود نظاميون، لكي ترديهم، واحداً واحداً، بيديها الحاذقتين في فن التطريز، فيما السيد الثاني، القادر على الظهور والتخفي كأنما بسحر ساحر، غارق في نومه العميق. وإذا كان السيد الثاني قد حرص كل الحرص على الاحتفاظ بهذه المرأة، فلأنها كانت تحترم الحكمة التي تنظم أوضاع المرأة: «من يتزوج ديكاً، يتبع الديك، ومن يتزوج كلباً يتبع الكلب». ولكن ألم يشبههم أحد من أهل القرية؟ حتى الأرنب البري يُدرك جيداً أنه لا ينبغي له أكل العشب بقرب وجاره. وهكذا قُيِّض لها أن تبقى على قيد الحياة، وكان ذلك أشبه بمعجزة. فما بقي زعيم الأشقياء المحسن الذائع الصيت السيد الثاني على قيد الحياة، لم يجرؤ أحد من زواره

الوافدين إليه برّاً أو عبر النهر أو من أيّ طريق أخرى، على التودّد إليها، لأنّه لو فعل للقيّ حتفه على يد المرأة. لم؟ لأنّ السيّد الثاني كان قاسي القلب، ولكنّ المرأة كانت أشدّ قسوة. ففي هذا المجال تبرز النساء الرجال. وإذا كنت لا تصدّقين ما أقول اسألي الأستاذ وو، المدرّس في ثانويّة هذه البلدة. إنّهُ يُعدّ مجموعةً من القصص من التاريخ المحلي بتكليف من مكتب السياحة الذي أنشئ حديثاً في مركز المقاطعة. رئيس هذا المكتب هو خال زوجة ابن شقيق الأستاذ وو، وإلاّ لما أوكلت إليه هذه المهمة. كلّ من له جذور في هذه الأرض يعرف قصصاً من تاريخها المحلي، وليس هو الوحيد القادر على تدوينها، ولكن منّ من الناس لا يصبو إلى تخليد ذكراه مؤرّخاً؟ وخاصّة إذا أتاح له مثل هذا الأمر أن يتقاضى مقابلًا ماليًا لا كسلفة على حقوق المؤلّف، وإنّما كأجر إضافي لقاء ساعات عمل إضافيّة. إلى ذلك، فإنّ الأستاذ وو يتحدّث من أسرة موظّفين إمبراطوريّين محلّيّين كبار، وبلغ طول الوثائق المكسوة بالحرير الأصفر التي أخرجت من داره وأحرقت أثناء الثورة الثقافيّة، نحو أربعة أمتار أو أكثر. لقد اشتهر أجداده بأنّهم قادة حرس البلاط الإمبراطوري في عهد الإمبراطور وندي من سلالة هان، أو أعضاء مجامع علميّة في عهد غوانغشو من سلالة تشينغ، ولكنّ المتاعب بدأت قبل بضعة عقود من الزمن، زمن جيّل والده، أثناء توزيع الأراضي في فترة الإصلاح الزراعي، عندما وصفوا بأنّهم «ملاكو أراض». في الوقت الحاضر قد يكون بلغ سنّ التقاعد شقيقه الأكبر الذي أقام في المهجر وانقطعت أخباره لبعض الوقت ثم أصبح أستاذًا في آخر

المطاف، عاد في زيارة إلى البلدة راكبًا سيارًا صغيرة برفقة نائب رئيس المقاطعة. وأحضر له معه جهاز تلفزيون ملون. والآن أصبحت نظرة موظفي البلدة الرسميين إليه مختلفة. ولكن دعينا لا نطيل الحديث بهذا الشأن. إذا تحت جناح الليل استولى الفلاحون الثائرون على مشاعل وأحرقوا الشارع بأكمله تقريبًا. في ما مضى، كان شارع البلدة الرئيسي هو الرصيف المحاذي للنهر، وحلت محطة النقل البري الحالية محل معبد الملك التّنين، عند طرف هذا الشارع. وفي ذلك الوقت، أي قبل أن يستحيل المعبد كومة من الأجر لا أكثر، كان من قبيل المعجزة أن يجد المرء مكانًا شاغرًا أمام المسرح لمشاهدة مصابيح التّنين الوافدة من قرى الضفتين كافة، في ليلة العيد في الخامس عشر من الشهر القمري الأول. كان كل فريق يميّز نفسه بعصابة رأس من لون موحد، أحمر، أصفر، أزرق، أبيض أو أسود بحسب لون تنّينه. على إيقاع قرع الصنوج والطبول تتمايل الرؤوس في الشارع وتتعانق. وعلى طول حافة النهر كانت الحوانيت تعلّق على طرف سقيفات الخيزران مغلّفاً أحمر محشواً بمبلغ من المال تتراوح قيمته من حانوت إلى آخر، وكلّ منها يسعى، عبر بذله هذه التقدمة، لاستمالة حظّ الازدهار إلى تجارته دون سواها. كان ظرف مالك حانوت الأرز، الواقع قبالة معبد الملك التّنين تقريبًا، هو الأكثر سخاءً في الأغلب، بالإضافة إلى حبال المفرقات المزدوجة ذات الخمسة حبة التي يدلّيها عادةً من سقف حانوته حتى تلامس الأرض. وسط نوافير شررٍ مفرقة، يبذل الفتيان كلّ طاقتهم في تحريك المصابيح، مُشكّلين رقصة لا تلبث أن تستحيل دوامة. ومن يحمل منهم

رأس التّين قاذفًا باليد الأخرى بالكرة المطرزة المزركشة قبل أن يستلقيها ثم يعاود قذفها، عليه أن يبذل جهودًا مضاعفة لإتمام شعودته. وعندما وصل تّينان، أحدهما من قرية غولاي، لونه أحمر، والآخر أزرق من البلدة نفسها بقيادة وو غيزي... كُفّ عن الكلام، أو بلى، تابع كلامك. هل تريدان أن أحدثك عن هذا التّين الأزرق؟ أتريدان أن أقول لك إنّ المدعوّ وو غيزي كان بطلاً مشهوراً في البلدة؟ فما من امرأة شابة لها قلبٌ فرّارٌ، ولو قليلاً، لا تلمع عيناها لمجرد رؤيته. فإمّا أن تدعوه لاحتساء كوب شاي أو قدح من شراب الأرز المُسكر... أصغ! ماذا؟ هيّا، قل ما تشاء. كان هذا المدعو وو غيزي يرقص التّين الأزرق على طول الطريق. وكان بخارٌ حارٌ يتصاعد من كلّ موضع من جسمه. وعندما بلغ معبد الملك التّين، راح يفكّ أزرار سترته البلاكمين ورمى بها إلى المارة الذين كانوا يشاهدون الاحتفال، كاشفاً عن نحره الموشوم برسم تّين أزرق. راح الفتیان الذين يحيطون به يصيحون باسمه مهلّلين. وفي تلك اللحظة وصل من طرف الشارع المقابل تّين قرية غولاي الأحمر. وقَدِمَ عشرون شاباً من أعمار مماثلة، ممثلّين حماسة، للظفر بمغلف مالك حانوت الأرز. وسرعان ما تحرك التّينان معاً، فلا رغبة لأيّ منهما في الاستسلام أمام الآخر. داخل المصاييح التي شكّل منها التّينان الأحمر والأزرق، أوقدت شموع. فما عاد يُرى سوى تّينين من نار مدوّمين وسط الحشد، رافعين رأسيهما، محرّكين ذليهما. كان وو غيزي يشعّود بكرته النارية، محوّماً عاري الذراعين على بلاط الطريق الحجري، جاذباً التّين الأزرق إلى دوران ملتهب. ولم يكن التّين الأحمر

مستكيناً هو أيضاً. فمن غير أن يغفل لحظة عن كرتة المطرزة المزركشة راح يزحف ويتلوّى، مثل حريش بين شذقيه فريسة حيّة. وعندما سكنت فرقة الحبل ذي الخمسمئة حبة، أشعل الشبان حبلاً آخر. كان الفريقان يلهثان من غير أن يتوقفاً عن الحركة والعرق المتصبّب على الأجساد يجعلها أشبه بأسمالك طازجة خارجة للتوّ من البحيرة. راحوا يتدافعون على مقربة من الحانوت متنازعين على خطف المغلف الأحمر المعلق من طرف السقيفة، والذي نجح شاب من أهالي قرية غولاي في التقاطه قفزاً. لم يسع فريق وو غيزي تحمّل هذه الإهانة. فطغت الشتائم المتبادلة بين الطرفين على ضوضاء المفترقات، وتشابك التّنينان على نحوٍ لا فكاك منه. لم يستطع المشاهدون الجزمَ فيمن كان البادئ، غير أنّ الحميّة بدأت تعتمل في نفوسهم. هكذا يبدأ الشجار عادة. علت صيحات دعر من أفواه نساء وأطفال، ومن منهنّ كانت تشاهد الاحتفال من عتبة بيتها بصحبة أولادها، سارعت إلى الاحتماء معهم في الداخل، تاركة المقاعد الشاغرة أسلحة محتملة بين أيدي المتعاركين. كان في البلدة، في ذلك الوقت، ضابط شرطة، لكنّه لم يكن حاضراً في تلك الأثناء فإمّا أنّه دُعي إلى شراب مجّاني وإمّا استغرق في متابعة لعبة قمار، مقتطعاً نسبة مئويّة من الأرباح لأنّ حفظ النظام مهمّة لا تُنجزُ بالمجان. في العادة لم يكن هذا النوع من الشجار يؤدّي إلى أيّ إجراء قانوني. كانت الحصيلة سقوط قتيل في صفوف فريق التّنين الأزرق وقتيلين في صفوف فريق التّنين الأحمر، هذا إذا أغفلنا ذكر شقيق شياو ينغتسي الذي أوقعه التدافع أرضاً من غير ذنب اقترفه، فداسته الأرجل

وتُرك حيث هو مصابًا بكسور في ثلاثٍ من أضلاعه. لحسن الحظّ أنّه أُعيد إلى الحياة بفضل جبيرة «جلد الكلب» المتوارثة، عبر الأجيال، عن تانغ المجدور الذي كان يملك حانوتًا بجوار دائرة الربيع المبهج حيث يشعّ إلى الأبد سراج أحمر. كلّ هذه أقاويل، ولكن أيضًا يمكن اعتبارها قصصًا، ويسعك أن تواصل سردها على مسامعها. غير أنّها ما عادت راغبة في الاستماع إليك.

## الفصل الثامن

أسفل المخيم، في غابة القيقب والزيزفون، عثر العالم النباتي العجوز الذي رافقني عبر دروب الجبل على شجرة زان ضخمة، يتجاوز ارتفاعها الأربعين مترًا، وهي المستحجرة النباتية الوحيدة المتبقية من العصر الجليدي، يفوق عمرها المليون عام. على المرء أن يرفع رأسه لكي يرى على أطراف أغصانها العارية وريقات نابذة ضئيلة الحجم. يتخلل جذعها تجويف كبير يصلح وجارًا لدب. أدخلني العالم النباتي إلى داخل التجويف مطمئنًا إلى أن الدب لا يلجأ إلى مثل هذا الوجار إلا في فصل الشتاء. ألجِه بمشقة، فإذا جنباته مكسوة بطحلب مخملي. من الخارج أيضًا ترى الشجرة مكسوة بطحلب مخملي. وتنتشعب جذورها وأغصانها المتشابكة منسلّة كالتنانين والأفاعي بين الأدغال والأعشاب الباسقة.

— أيها الفتى، هي ذي الطبيعة في طورها البري حقًا، يقول ضاربًا جذع الشجرة بمعول. اعتاد أن ينادي جميع العاملين في المحمية بـ «يا فتى»، هو الستيني المحفوظ بكامل عافيته. لا يكف عن التجوال في نواحي الجبال، مستعينًا بمعوله كأنه عصا.

— إنهم يقطعون الأشجار الثمينة ليصنعوا منها شتى أنواع الأدوات. ولولا التجويف في جذع هذه الشجرة لكانت قُطعت هي أيضاً. لم يعد هذا المكان غابة بدائية بكل ما للكلمة من معنى. بل إنها، على الأكثر، غابة بدائية من «الدرجة الثانية»، يقول متحسراً.

لقد قدم إلى هذا المكان بحثاً عن عيّنات من الخيزران الرفيع، وهو غذاء دببة الباندا. أرافقه مندرساً بصعوبة بين أجسام الخيزران اليباس التي تزيد عن قامة الإنسان ارتفاعاً. لا نعثر على خيزران أخضر. فيشرح لي قائلاً إنّ ستين عاماً تنقضي بين الفترة التي يزهر فيها الخيزران ويبرعم والفترة التي يبس فيها، ثم يفرّخ شتولاً ويزهر من جديد. وهي تماماً عدلُ الفترة التي تستغرقها الـ «كالبا»، أي تعاقب الوجودات والموالد الثانية في الديانة البوذية.

— الإنسان يتبع دروب الأرض، والأرض تتبع دروب السماء، والسماء تتبع دروب الدرب، والدرب يتبع دروبه الخاصة<sup>(١)</sup>، يتلو بصوت عالٍ، لا ينبغي لنا أن نأتي بأعمال تخالف الطبيعة، لا ينبغي لنا أن نأتي بالمستحيل.

— ما القيمة العلميّة التي يمثلها إنقاذ دببة الباندا؟

— الأمر لا يتعدى كونه رمزاً، أو عزاءً، فالإنسان يحتاج إلى خداع نفسه. فمن ناحية يعمل على إنقاذ نوع فقد القدرة على البقاء، ومن ناحية

---

(١) قولُ مُستقى من «داودجينغ»، أو كتاب الدرب والفضيلة. بحسب الترجمة الفرنسية التي وضعها كل من فرنسوا هوانغ وبيار ليريس، منشورات لوسوي، ١٩٧٩.

أخرى يسرّع عملية تدمير البيئة التي تسمح له بالبقاء. انظر إلى ضفتي نهر مينجيانغ، الغابات قُطعت على الجانبين، وما عاد النهر نفسه سوى مجرى للطين الأسود. ودعنا من ذكر الـ يانغتسي، وسواه. زد على ذلك أنهم يخطّطون لإيجاد بحيرة اصطناعية وبناء سد لها على مستوى المضائق الثلاثة! لا شك في أن التخطيط لمشاريع خيالية لهو أمر رومانسي. لقد برهنت الوقائع التاريخية أن منطقة الصدع الجيولوجي هذه قد شهدت أكثر من خسوف للأرض، ولا شك في أن بناء السد سوف يدمر التوازن البيئي بمجمله في منطقة حوض الـ يانغتسي. وإذا حدث أن تسبّب ذلك بزلزال فإنّ مئات الملايين من سكّان المنطقة سوف يتحولون إلى سلاحف! طبعاً لن يُصغي أحدٌ إلى هذر عجوز مثلي. الإنسان ينهب الطبيعة، ولكن الطبيعة سوف تنتقم في آخر المطاف!

أتبعه على دروب الغابة بين السرخسيات التي ترتفع حتى الخصر بأوراقها الملتفة التي تشبه أقماعاً ضخمة؛ وبين أجسام الـ «رودجيرسيا أيسكوليفوليا» ذات الأوراق الدوّارية السبع والاخضرار الزمردي الفاقع. جوّ مُشبع بالرطوبة، حيثما ذهبنا. فلا أتمالك نفسي عن سؤاله:

— أوجد أفاع في هذه الأدغال؟

— لم يحن موسمها بعد، ولكن مع مطلع الصيف، واعتدال الطقس، تغدو شديدة الخطورة.

— وحيوانات بريّة؟

— ليس ما يدعو إلى الخوف منها، الأحرى أن تخاف البشر!

وأخبرني أنه التقى ذات يوم، في فترة صباه، ثلاثة نمور. لقد مرت الأم وصغيرها بجواره. أمّا الثالث، وهو الذكر، فرفع رأسه مقترباً منه. تبادل النظرات لهنيهات، وإذا بالنمر يشيح ببصره ويبتعد عنه بدوره.

— النمر، بالإجمال، لا يهاجم البشر فيما البشر يطاردونه في كل مكان لإبادة جنسه. لم يبق أثرٌ للنمور في جنوب الصين. وتكون رجلاً محظوظاً حقاً لو صادفت أحدها في هذه الأيام.

يقول ذلك بشيء من السخرية.

— وماذا عن شراب عظام النمور الذي يُباع في كل مكان؟

— هذه دعاية! حتى المتاحف لا تتمكن من جمع عينات منها. ففي غضون السنوات العشر المنصرمة لم يتمكن أحد من شراء جلد نمر واحد في طول البلاد وعرضها. وقصد أحدهم إحدى بلدات فوجيان لشراء هيكل عظمي لنمر، فتبين بعد فحص الخبراء أنها في الحقيقة عظام خنزير وقلب!

يُغربُ في الضحك ثم، لاهئاً، يتوقّف قليلاً متكئاً على معوله:

— لقد قُبِضَ لي أن أنجو مراراً من الموت في حياتي الطويلة هذه، ولكنّ السبب لم يكن في يوم من الأيام مخالاب الحيوانات البرية. ذات مرة، خطفني أشقياء وكان غرضهم مقايضتي بسبيكة ذهب ظناً منهم أنني ابن أسرة ثرية. فما كان بوسعهم أن يتخلّطوا لحظة واحدة أن طالباً فقيراً مثلي يجوب نواحي الجبال، لا يملك من المتاع سوى ساعة يد مستعارة من أحد أصدقائه. ومرة أخرى نجوت من قصف ياباني. سقطت القنبلة على عارضة سقف البيت الذي كنت أسكنه، فتطاير كل



نفسها لا تخضع لأي منطق، فلم سعيننا لاستخلاص مغزاها على نحو منطقي؟ ثم ما هو المنطق؟ ربّما كان حريّا بي أن أتخلّى عن التفكير، لأنّه مصدر شقائي.

أسأل لاو وو، الرجل الذي ساعدني في التخلّص من القردة التي نهشت جنبي، إذا كان لا يزال هناك غابات بدائيّة في هذه النواحي. أجاب بأنّ الجوار كلّه كان في ما مضى غابات بدائيّة.

أقول إنّ الأمر بديهيّ، ولكنني أسأل إذا بقي منها شيء في الوقت الحاضر.

— في هذه الحال، عليك أن تذهب إلى «الصخرة البيضاء». لقد تمكّنّا من شقّ دربٍ إليها.

سألته إذا كان يقصد الصخرة البيضاء المنتصبة وسط بحر الغابات، عند قمة جرف نصل إليه عبر الدرب الذي يخترق وهذا، أسفل المخيم. هزّ رأسه إيجاباً.

لقد سبق لي أن قصدت المكان الذي أشار إليه، حيث تضيق الفرجات لكثافة الأشجار، وحيث ترقّد جذوع الأشجار السوداء الضخمة التي لم تجرفها بعدُ سيول الأنهار.

— هناك أيضاً قُطعت أشجار، أقول.

— كان ذلك قبل إنشاء المحميّة الطبيعيّة.

— ولكن في المحصلة هل يوجد بعدُ في هذه المحميّة الطبيعيّة غابة بدائيّة لا أثر فيها للجراح التي تخلفها يد البشر؟

— طبعًا، اذهب إلى نهر جنغ.

— هل هذا مُمكن؟

— حتى نحن، بكلّ معدّاتنا وتجهيزاتنا، لم نتمكن من بلوغ وسطها. إنّه عبارة عن مضائق ذات تضاريس معقّدة ومحاطة بجبال عالية مكسوّة بالتلّوج يفوق ارتفاعها الخمسة آلاف أو الستّة آلاف متر.

— وكيف لواحدنا أن يتمكّن من مشاهدة غابة بدائيّة بما للكلمة من معنى؟

— أقرب النقاط التي يتعيّن عليك أن تقصدها هي ١١ م ١٢ م. ويقصد بذلك إحدى النقاط الجيوديزيّة المعتمّلة على الخريطة، والمُستخدمة في الطبوغرافيا الجويّة.

— ولكن أنتَ لا يسعك الذهاب بمفردك.

ويستطرد شارحًا أنّه في غضون العام المنصرم انطلق عاملان مُجازان من الجامعة كانا ألحقا حديثًا بالمخيّم، قاصدين المكان المذكور، مزوّدين ببوصلة وعلبة بسكويت لاعتقادهما بأنّهما لن يصابا بمكروه، ولكن حلّ المساء ولم يعودا. ولم يظهر أحدهما إلّا عصر اليوم الرابع، بعد أن تمكّن من التسلّق حتى بلغ الطريق والتقطه موكب عربات كان متوجّهًا إلى تشينغهاي. وهبط بعضهم المنحدر بحثًا عن رفيقه الذي أفقده الجوع وعيه. يوصيني ألاّ أبعد بمفردي مهما حصل ويقول لي محدّرًا إنّي إذا كنت أريد حقًا أن أرى هذه الغابة البدائيّة فينبغي لي أن أنتظر ريثما يذهب أحد العاملين إلى النقطة ١١ م ١٢ م لجمع إشارات حركة الباندا.



## الفصل التاسع

لديكِ هموم؟

تقول لها مُشاكِسًا.

وما الذي أوحى لك بذلك؟

الأمر بيّن، فتاة تهرب إلى مكان كهذا.

أنتَ أيضًا بمفردك، أليس كذلك؟

هذه عادة لديّ. يحلو لي التجوال وحيدًا، فعلى هذا النحو يُتاح لي أن أستغرق في التفكير. ولكن صبيّة مثلك...

كفى! تقصد أن التفكير حكرٌ على الرجال.

لم أقل يومًا إنكِ فتاة يُعوّزها التفكير.

أحسنّت، فثمّة رجال يُعوّزهم التفكير!

الظاهر أنك واجهت صعوبات.

كلّ إنسان يُفكّر، وليس فقط عندما يواجه صعوبات.

لم يكن غرضي أن أخوض شجارًا معك.

وأنا أيضاً.  
أودّ أن أساعدك.  
عندما أحتاج إلى المساعدة.  
ألا تحتاجين إليها الآن؟  
لا، شكرًا. ما أحتاج إليه الآن هو أن أختلي بنفسي وألاّ يزعجني أحد.

هذا يؤكّد أنّك تواجهين بعض المتاعب.

إذا شئت.

أتشعرين بكآبة.

الأمر أقلّ خطورة ممّا تفترض.

إذا أنتِ تقرّين بأنّك تواجهين متاعب؟

مثلي مثل الناس جميعًا.

لكنّك تسعين وراء المتاعب.

لمّ؟

لا يحتاج الأمر إلى تبصّر فوق العادة.

أنتِ ماكر حقًا.

شريطة ألاّ يستحيل المكر سأمًا.

وهو الأمر الذي لا يشبه الحبّ.

لكنك لن ترفضي نزهةً برفقتي بمحاذاة الضفة؟

تود أن تثبت لنفسك أنك ما زلت قادرًا على استمالة الفتيات. بعد تردد تتبعك. تسلكان صُعدًا طريق السدّ بمحاذاة النهر. أنت تحتاج إلى سعيك وراء السعادة، وهي تحتاج إلى سعيها وراء الألم.

تقول إنها لا تجرؤ على النظر إلى أسفل، تقول إنك تعلم جيدًا بأنها خائفة.

وممّ أخاف؟

من المياه.

تضحك، لكنك تعلم أنّ ضحكها مصطنع بعض الشيء.

لا تملكين الجراءة على القفز، تقول متعمدًا السير بمحاذاة الحافة. أسفل السدّ، تدوم مياه النهر نائرة.

ماذا لو قفزت؟ تقول.

أقفز لكي أنقذك. وأنت تدرك تمامًا أنّ قولك هذا سوف يكسبك حظوةً لديها.

تقول إنها تشعر بدوار خفيف، وتردف قائلة إنّ القفز يسير جدًّا، إذ يكفي أن تغمض عينيها، وإنّ طريقة الموت هي أقلّ ما يؤلم في الموت، لا بل هي أشدّ ما فيه من الفتنة. تقول إنّ فتاة مثلها وافدة هي أيضًا من المدينة، قفزت من أعلى إلى مياه هذا النهر. كانت أصغر منها، وأكثر بساطة. لا تقصد أنّها، هي، معقّدة على نحو خاص، وإنما تقصد أنّ

الناس اليوم ليسوا أكثر حمقًا أو أقل من أناس الزمان الماضي، وأن الزمان الماضي ليس بعيدًا جدًا. تقول إن الأمر حدث في ليلة بلا قمر، وإن المياه كانت تبدو أعمق. زوجة المُعْبَرُ وانغ الأحدب صرحت في ما بعد أنها في ذلك الوقت حاولت إيقاظ زوجها النائم قائلة إنها سمعت رنين السلاسل التي تمسك بحبال المركب. همت بالنهوض للتحقق مما يجري فسمعت ما يشبه العويل، فحسبت أن هذا كله صنيع الرياح. وقالت في سرّها إنه من غير المحتمل أن يكون هذا صنيع لصّ يحاول السرقة، لأنّ العويل الذي سمعته كان مسموعًا، ومع ذلك لم تتبج الكلاب في ليلة مظلمة وساكنة مثل هذه. لذا أوتّ مجددًا إلى فراشها، وفي نومها دوت الصرخة مرّة ثانية. استيقظت وأصغت. تقول إن الفتاة ما كانت لتتنحّر، في ذلك الوقت، لو سارع أحد إلى نجدها. والذنب هو ذنب هذا الشيطان العجوز الذي كان غارقًا في سبات عميق. كان يحدث أحيانًا أن يأتي أحدهم فيطرق النافذة أو ينادي بأعلى الصوت إذا كان مضطّرًا لعبور النهر في ساعة متأخرة من الليل. وما لم تجد تفسيرًا له هو حاجة الفتاة إلى نقل السلاسل من مكانها لكي تتنحّر، فلعلّها حاولت الاستعانة بالمركب لبلوغ مركز المقاطعة ومنه العودة إلى أهلها في المدينة؟ كان يسعها ركوب الحافلة المتوجّهة إلى مركز المحافظة عند الظهر، إلّا إذا كانت تخشى افتضاح أمرها. لا يستطيع أحد أن يعلم ما هي الأفكار التي راودتها قبل أن تموت. والحقيقة أن لا أحد يعلم ما الذي حمل هذه الفتاة المؤدّبة جدًا على القدوم إلى هذه البلدة لتعمل في الزراعة وليس لها فيها أهل أو أصدقاء. كان قد اغتصبها أحد أمناء فروع الحزب، يا للعار! وعند مطلع النهار عثر عليها ركّاب طوف على رصيف رمليّ على بعد

ثلاثين لي من هنا. كانت عارية الصدر، فلعلّ ملابسها علقت بأغصان شجرة عند إحدى عققات النهر. ومع ذلك بقي حذاؤها الرياضيّ موضوعًا بعناية على صخرة، على تلك الصخرة التي حُفر عليها بحروف معتلّمة بطلاء أحمر «معبّر يو». وفي الأيام المقبلة سوف يتسلّق السياح هذه الصخرة لالتقاط صور لأنفسهم فوقها، وسوف يحتفظون بذكرى هاتين العبارتين، غير أنّ أرواح الضحية اليافعة سوف يطويها النسيان الأبديّ.

هل تصغين إلى ما أقول؟ تسأل.

تابع، تجيب بصوت خفيض.

لطالما شهدَ هذا المكانُ موتَ أناسٍ، في ما مضى، أولادًا، فتيات في ريعان العمر. الأولاد يقفزون من على الصخرة. إنّ لم يطفوا على سطح الماء مجدّدًا قيل عن فعلتهم إنّها «سعيّ وراء الموت»، وقيل إنّ أهلهم في حيوات سابقة يستعيدونهم. ضحايا الظلم هم دائمًا من النساء. إنّ لم يكن مدرّساتٍ شابّات أبعدنَ من المدينة، فهنّ، بالتأكيد، ممّن تزوّجن حديثًا وتلقينَ سوء المعاملة من قبل حمواتهنّ أو أزواجهنّ، كما من بينهنّ أيضًا حسناوات انتحرن جرّاء قصّة حبّ محبّطة. لهذا السبب كان القرويون، قبل أن يجري الأستاذ وو أبحاثه حول هذه البلدة، يسمّون معبر يو هذا بـ «جُرف الأشباح المألومة»، وعندما يقصده الأولاد لغرض السباحة فيه، يلبثُ البالغون في قلقٍ على مصيرهم. ويروى أيضًا أنّه في منتصف الليل يظهر في هذا المكان شبح امرأة مجلّبة بثوب أبيض وتتشد أغنية لا تفهمُ كلماتها بوضوح. البعض يقول إنّها تهويده

أطفال، فيما البعض الآخر يزعم بأنها شكوى متسوّلة. طبعاً هذه ليست سوى خرافات، فغالباً ما يميل الناس إلى إخافة أنفسهم. لكنّ المؤكّد هو أنّ عصفوراً مائئياً يحيا في هذا المكان، يسمّيه أهل الناحية الرأس الأزرق، بينما يقول المتعلّمون منهم إنّهُ العصفور الأزرق الذي ورد ذكره في الشعر المدوّن في عهد سلالة تانغ. القرويّون هم الذين يطلقون عليه اسم الرأس الأزرق بسبب ريشه الطويل الأزرق. لا بدّ أنّك شاهدت هذا العصفور من قبل؛ إنّهُ ضئيل الحجم، ومكسوّ بريش أزرق قاتم وعلى رأسه قنزعتان زمرديتان، حاذق، رشيق، حسن المظهر. لا يحطّ إلّا في المواضع الرطبة الظليلة، أسفل السدّ، أو عند أطراف دغل الخيزران الكثيف، أو على ضفاف المياه، متلفّفاً، يميناً ويسرة، على سجيّته، غير هيّاب. يسعك أن تنظر إليه لكي تتملّأه، ولكنّ أدنى حركة تحمله على الفرار محلقاً. العصفور الأزرق الذي ينقر لأجل ملكة الغرب الأمّ الوارد ذكره في مصنّف البحار والجبال هو نوع من الطيور العجائبيّة. ليس هو ما يسمّيه القرويّون بـ «الرأس الأزرق»، غير أنّ له الطابع السحريّ نفسه. تقول لها إنّ هذا العصفور أشبه بامرأة. طبعاً هناك نساء حمقاوات، غير أنّك هنا تتحدّث عن النساء الأكثر رقيّاً، والأكثر عاطفيّة. فالنساء مثلهنّ لا يعرفنّ الحياة الهانئة إلّا في ما ندر، لأنّ الرجال يرغبون في النساء لمتعتهم الخاصّة، والأزواج يرغبون في زوجة تُعنى بالمنزل والمطبخ، والمسنون يرغبون في كنةٍ توفّر لهم الذريّة. لا أحد يسعى وراء الحبّ. ثمّ حين تحدّثها عن فتاة أخرى، عن قرويّة شابّة، تصغي إليك بانتباه. وعندما تقول إنّها ماتت، ضحية ظلم، في هذا النهر، عندما تشرح لها ما يقوله الناس، تهزّ رأسها. مشدوهة

تصغي إليك. وهذا الذهول البادي على مُحياها يضاعفُ حُسْنها في نظرك.

نقول إنّ هذه القرويّة الشابّة كانت مخطوبة لرجل، ولكن عندما جاء موفد عائلة زوجها العتيد لاصطحابها، كانت الفتاة قد اختفت. فرّت مع عشيقها وهو شابّ من الأرياف.

هل كان هو أيضًا ممّن يحملون مصابيح التّنين؟ تسأل.

كانت عصابة الفتيان التي تشارك في معركة التّنانين المصابيح تأتي من قرية غولاي. أمّا أسرة هذا الشابّ فتقيم في وانغنيان، على بعد خمسين لي من هنا، كما أنّ الحادثة تعود إلى زمان مغرق في القدم. كان شابًّا ممتازًا لا يملك لا مالًا ولا سلطة. أسرته لا تملك سوى بضع مئات من الأمتار جُعِلَ قسمٌ منها حقول أرز. وهناك كان على المرء أن يكّد في عمله كي لا يقضي جوعًا، طبعًا شريطة ألاّ تحلّ كارثة طبيعيّة أو تتشبّ حرب أو ما يعدم القرية سبلَ الحياة، وهذا ما جرى بالفعل. ولم يكن هذا الشابّ، حبيب الفتاة، يملك ما يجعله أهلاً للزواج من فتاة بمثل ذكائها وجمالها. فخطيبة من هذا العيار لها ثمن محدّد: زوجا أساور من الفضة كعربون، ودفعتان من ثماني علب حلوى كهديّة خطوبة، وصندوقان وخزانتا ملابس مذهبتان كمهر، وهذه كلّها على نفقة المُشتري العتيد. كان الرجل الذي اشتراها يقطن زقاقًا يقع خلف حانوت المصوّر الحالي. طبعًا تغيّر المالكون منذ أمد بعيد. في ذلك الزمان، لم تكن زوجة قاطنه قد أنجبت له سوى فتيات. ولمّا كان يرغب في أن يكون له ولد ذكر، قرّر أن يتخذ له خليلة. من ناحيتها، كانت والدّة الفتاة،



















































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































